سُورَةُ الأَحْقَافِ

دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ جَامِعَةٌ
بِالْمَأْثُورِ وَالدِّرَايَةِ وَالْمَقَاصِدِ



جمع وترتيب / راجي رحمة ربه
فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

سورة الأحقاف

دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ جَامِعَةٌ بِالْمَأْثُورِ وَالدِّرَايَةِ وَالْمَقَاصِدِ

جمع وترتيب / راجي رحمة ربه

فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً وبينات، وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث بالهدى ودين الحق، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن من أعظم ما يشتغل به العبد في زمانه: تدبر كتاب الله، والوقوف على مقاصده وهداياته، لا على وجه التلاوة وحدها، بل على وجه النظر والتحليل، واستخراج ما تنطوي عليه الآيات من حجج وبراهين، وأحكام وأخلاق، وسنن إلهية في الأمم والأفراد. وقد كان سلف هذه الأمة يعظمون شأن التدبر، ويجعلون التفسير باباً إلى الهداية قبل أن يكون باباً إلى المعرفة، ولذلك كثرت في كتبهم العبارات التي تردّ القارئ من مجرد جمع الأقوال إلى استخراج المعاني، ومن التكرار إلى النظر في النظم والبناء.

وسورة الأحقاف من السور التي قلّ أن تجدها في كتب التفسير مفردة بدراسة تجمع بين التفسير التفصيلي والنظر في الوحدة الموضوعية والنظم القرآني؛ فجلّ ما كتب عنها إما إشارات عابرة في ثنايا تفسير السور المكية، أو مباحث جزئية في بعض كتب التفسير التحليلي.

وهذا الكتاب الذي بين يديك محاولة لسد هذه الثغرة، وإخراج سورة الأحقاف في دراسة متكاملة، تجمع بين الأصالة العلمية والتحرير المنهجي، وبين العرض التفسيري والتحليل البياني، وبين استخراج المقاصد والهدايات والتنزيل المعاصر المنضبط.

وقد سلك الكتاب في عرضه منهجاً يقوم على تقسيم السورة إلى سبعة مقاطع، لكل مقطع وظيفة في بناء الحجة الكبرى التي تنتظم السورة كلها؛ فيبدأ بإثبات مصدرية الوحي وإبطال الشرك، ثم ينتقل إلى موقف الناس من القرآن والرسالة، ثم إلى آثار الإيمان في النفس والأسرة، ثم إلى شاهد التاريخ في قصة عاد، ثم إلى سعة الاعتبار بمصارع الأمم، ثم إلى استماع الجن وإيمانهم، ثم ينتهي إلى تثبيت الرسول ﷺ بالصبر وتقرير البعث والجزاء. وهذا التقسيم ليس تجزيئاً للسورة، بل هو تتبع لحركة النص في بناء حجته، وإظهار لكيفية ترابط الآيات وتسانُدها في تحقيق مقصد واحد.

وقد اعتنى الكتاب عناية خاصة بتحرير المسائل، فلم يكتف بنقل الأقوال، بل نظر في أدلتها، ووازن بينها، وبيّن الراجح منها بدليله، مع التمييز بين ما هو من التفسير بالمأثور الثابت، وما هو من قبيل المناسبة والاستنباط. كما تجنّب الكتاب ما دبّ في بعض كتب التفسير من التساهل في إيراد الروايات الضعيفة، أو الجزم بأسباب نزول لا تثبت، أو تحميل الآيات ما لا تحتمله من التطبيقات المعاصرة.

إن هذا الكتاب ليس موجهاً إلى المتخصصين وحدهم، بل هو مكتوب بأسلوب يجمع بين العمق العلمي والوضوح البياني؛ ينتفع به طالب العلم الذي يريد أن يتدرب على منهج التفسير والتحرير، كما ينتفع به القارئ المثقف الذي يريد أن يفهم سورة من كتاب الله فهماً منضبطاً، يجعله يعيش مع الآيات لا يقرؤها قراءة عابرة. ثم إنه كتاب لا يقرأ لمجرد المعرفة، بل يقرأ للعمل والاعتبار؛ فإن أعظم ما تحذّر منه السورة ليس الجهل بحقيقة الوحي، بل الإعراض عنه بعد ظهوره، والاستكبار عن اتباعه، والاغترار بالقوة والنعمة، وتأخير التوبة حتى يفاجئ الإنسان الأجل.

ولعل من أبرز ما يخرج به القارئ من هذه الدراسة: أن الحق لا يُعرف بكثرة الأتباع ولا بمكانة القائلين، وأن القوة ليست حصانة من الجزاء، وأن النعمة مسؤولية لا ضمانة، وأن الاستقامة امتداد للإيمان لا دعوى منفصلة عنه، وأن تأخير العقوبة لا يعني سقوطها، وأن الصبر على طريق الدعوة سنة ماضية في الرسل أولي العزم. وهذه معانٍ يحتاجها المسلم في زمانه، كما احتاجها من قبله، لأن سنن الله في الأمم لا تتبدل، ولأن مواقف النفوس من الحق تتكرر.

فإن كنت ممن يريد أن يقرأ سورة من كتاب الله قراءةً تُغيّر في قلبه قبل أن تُضيف إلى معلوماته، وتربّي فيه الإنصاف قبل أن تزيده جدلاً، وتجعله ينظر في عواقب الأمور قبل أن يغتر بظواهرها؛ فهذا الكتاب كُتب لك. وإن كنت ممن يطلب التفسير بمنهج يجمع بين الأصالة والتحرير، ويربط الآيات بمقاصدها، ويقف عند حدود العلم لا يتجاوزها؛ فستجد في هذه الصفحات ما تطلب. وإن كنت داعياً إلى الله أو طالباً للعلم، فستجد في قصة هود عليه السلام، وفي مشهد استماع الجن وإيمانهم، وفي ختام السورة بالأمر بالصبر، زاداً لتثبيتك على الطريق.

وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لعباده، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، وأن يرزقنا تدبر كتابه والعمل به، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الجزء الأول :

❖ التعريف بالسورة، ومقصدها العام، وبناؤها الموضوعي، والتمهيد للتفسير التفصيلي.

تمهيد

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، وجعله هداية للناس، وحجة على المعرضين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث بالهدى ودين الحق، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فسورة الأحقاف من السور المكية التي تتجلى فيها قوة الحجة القرآنية في تقرير أصول الإيمان، وكشف حقيقة الشرك، وإقامة البرهان على صدق الوحي والرسالة، وإثبات البعث والجزاء .

غير أن بناء السورة لا يقوم على مجرد تقرير هذه الأصول متفرقة؛ بل تنتظم آياتها في سياق حجج تربوية متصلة، ينتقل بالقارئ من النظر في مصدر الكتاب وعظمة منزله، إلى إبطال عبادة ما لا يملك الخلق ولا الإجابة، ثم إلى مواجهة المكذبين بحقيقة الرسالة ومواقف الناس منها، وإقامة الشواهد على صدقها من داخل التاريخ الإنساني، ومن فطرة الإنسان، ومن شهادة الجن الذين استمعوا إلى القرآن، ثم ينتهي الخطاب إلى تقرير سنة الله في المكذبين، وتثبيت الرسول ﷺ بالأمر بالصبر والاقتداء بأولي العزم من الرسل.

وتتخذ السورة من قصة عاد ومساكنهم بالأحقاف شاهدًا تاريخيًّا على أن القوة والعمران لا يمنعان حلول العقوبة إذا استكبر أهلها عن الحق .فالأحقاف ليست مجرد موضع جغرافي ورد في أثناء السورة، وإنما هي موضع استحضار لأمة كانت ذات قوة، ثم لم تغن عنها قوتها حين أعرضت عن دعوة رسولها.

ومن هنا تتآزر في السورة ثلاثة أنواع من الحجة :حجة الوحي والبرهان، وحجة الفطرة والاعتبار، وحجة التاريخ والمصير .وتنتظم هذه الحجج في مواجهة أصل واحد هو الإعراض عن عبادة الله والاستكبار عن اتباع رسوله.

أولًا :بين يدي السورة والتعريف بها

❖ اسم السورة ووجه تسميتها

اشتهرت هذه السورة باسم **سورة الأحقاف**، وهو الاسم الذي جرى عليه رسم المصاحف وعناوين كتب التفسير .وقد وردت تسميتها بهذا الاسم في حديث ابن عباس رضي الله

عنهما، إذ قال :"أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف"، وهو خبر أخرجه الإمام أحمد، وذكر ابن عاشور أن إسناده جيد .كما وردت تسميتها في كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

وسميت بالأحقاف لورود هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن، في قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[1].

والأحقاف جمع حِقْف، وهو الرمل المستطيل المعوج، أو ما استطال من الرمل وانحنى . والمراد بها في الآية ديار عاد التي بعث الله إليهم هودًا عليه السلام.

وليس اختيار هذا الاسم خاليًا من الدلالة على بناء السورة؛ إذ إن الموضع الذي سميت به يتصل بأحد أبرز شواهدها على عاقبة التكذيب .فالسورة التي افتتحت بإقامة الحجة على المشركين في أمر التوحيد والوحي، تستحضر في أثنائها قومًا كذبوا رسولهم، واغتروا بما أوتوا من قوة، ثم انتهى أمرهم إلى الهلاك.

وورد كذلك إطلاق "حم الأحقاف" عليها في بعض كتب التفسير والآثار، أما الاسم المعتمد المشهور فهو الأحقاف[2] .

❖ **مكية السورة ومدنيتها:** السورة مكية في قول جمهور أهل العلم، بل حكى القرطبي الاتفاق على مكيتها .غير أن بعض المفسرين ذكروا استثناء آيات منها، واختلفوا في تعيينها؛ فحكى ابن عطية استثناء قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ الأحقاف :١٠ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وذكر أيضًا استثناء قول الله تعالى:﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[3].

وقيل باستثناء آيات أخرى من قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [4]

---

[1] الأحقاف: ٢١

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير سورة الأحقاف، الجزء السادس والعشرون، ص ٥ وما بعدها. وانظر كذلك مقدمة السورة في منصة القرآن الكريم، وهي تنقل مادة من تفسيره.

[3] سورة الأحقاف:.٣٥

[4] سورة الأحقاف - الآية ١٥

ومنشأ هذا الخلاف أن بعض الآيات تضمنت إشارات إلى أشخاص أو وقائع ارتبطت بالإسلام بعد الهجرة، فحملها بعضهم على النزول المدني .لكن لا يلزم من ورود واقعة مدنية في تفسير آية أن تكون الآية نفسها قد نزلت بالمدينة؛ إذ قد تتنزل الآية المكية على واقعة لاحقة، أو يستشهد بها في تفسير حادثة لم تكن سبباً لنزولها.

والذي يظهر أن وصف السورة بالمكية هو الأصل الراجح بالنظر إلى مجموع سياقها، وموضوعاتها، وطبيعة خطابها، ولا يثبت استثناء آية منها بمجرد احتمال تاريخي لا يقوم عليه نقل محرر.

وقد عدها ابن عاشور الخامسة والستين في ترتيب النزول، وذكر أنها نزلت بعد سورة الجاثية وقبل الذاريات .وهذا الترتيب منقول عن ترتيب النزول، لا عن ترتيب المصحف[1] .

عدد آياتها وترتيبها: سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف، وعدد آياتها خمس وثلاثون آية على العد الكوفي، وهو العد المشهور في المصاحف المتداولة برواية حفص عن عاصم.

وقد نقل ابن عاشور اختلاف أهل الأمصار في عد آياتها؛ فجمهورهم على أربع وثلاثين، وأهل الكوفة على خمس وثلاثين، ويرجع الاختلاف إلى عد الحروف المقطعة ﴿حمٓ﴾ آية مستقلة أو عدم عدها كذلك، لا إلى اختلاف في ألفاظ القرآن المنزل[2] .

❖ **أسباب النزول :** لم يثبت سبب نزول واحد للسورة كلها، وإنما وردت روايات في أسباب نزول بعض آياتها، وهي متفاوتة من حيث الثبوت والدلالة.

ومن المهم في هذا الباب ألا نجعل كل خبر يذكر عند آية سبباً لنزولها؛ فإن أسباب النزول باب نقلي لا يثبت بمجرد المناسبة، ولا بد فيه من التمييز بين التصريح بالنزول وبين تفسير الصحابي أو التابعي للآية بواقعة.

ومن الأخبار التي تذكر في هذا السياق ما روي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [3]

---

١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء السادس والعشرون، ص ٥-٦، في الكلام على مكية السورة وترتيب نزولها. وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، فصل نزول سورة الأحقاف.

٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء السادس والعشرون، ص ٦، في اختلاف أهل الأمصار في عدد الآيات.

٣ الأحقاف: ٩.

وقد ربط بعض المفسرين ذلك بما وقع للمسلمين في مكة من انتظار الهجرة، وما ورد في الرؤيا التي رآها النبي ﷺ بشأن أرض ذات نخل وماء .لكن الروايات الواردة في هذا الربط ليست في درجة واحدة، ولا يصح الجزم بسبب النزول اعتمادًا على مجرد إيرادها في كتب التفسير.

وكذلك وردت روايات في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [1]

وربطها بعض أهل التفسير بإسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه .وهذه المسألة سيأتي تحريرها عند تفسير الآية، ولا ينبغي أن نحسم بها تاريخ نزولها قبل النظر في ثبوت الرواية وفي دلالة الآية نفسها.

❖ **فضل السورة :** ثبت في السنة فضل قراءة سور الحواميم، فقد ورد في سنن أبي داود من حديث المهال بن عمرو عن أبيه عن النبي ﷺ في الرجل الذي طلب أن يقرئه القرآن، أنه أمره أن يقرأ من ذوات ﴿حمٓ﴾ ثلاثًا.

وهذا يدل على مشروعية الاعتناء بهذه السور وفضل تلاوتها، لكنه لا يثبت فضيلة مخصوصة لسورة الأحقاف وحدها بثواب معين أو عدد معين من الحسنات، ما لم يرد بذلك دليل صحيح خاص.

أما الأحاديث والآثار التي تعين ثوابًا مخصوصًا لقراءة الأحقاف، فلا يصح اعتمادها دون تحقق من أسانيدها .٤

المقصد العام والمحاور الكبرى للسورة : بعد النظر في مطلع السورة ومقاطعها وخاتمتها، يظهر أن مقصدها الجامع هو:

إقامة الحجة على وحدانية الله وصدق وحيه ورسالة نبيه ﷺ، وكشف فساد الإعراض عن الحق والاستكبار عن اتباعه، وبيان أن العاقبة للمتقين وأن القوة والجاه لا يدفعان حكم الله، مع تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين على طريق الدعوة والصبر.

وهذا المقصد لا يستخرج من آية منفردة، وإنما من انتظام موضوعات السورة :فالقرآن منزل من الله العزيز الحكيم، والخلق شاهد على وحدانيته، والمعبودات من دونه عاجزة عن أدنى

---

١ الأحقاف: ١٠.

خصائص الإلهية، والرسالة ليست بدعًا من الرسالات، والقرآن يشهد له منصفون من أهل الكتاب، بل يستجيب له من الجن من يستمع إليه، بينما يعرض عنه المستكبرون من الإنس. ثم تعرض السورة نماذج بشرية متقابلة :ابنًا بارًّا مؤمنًا يعترف بنعمة الله ويطلب التوفيق للشكر والعمل الصالح، وابنًا جاحدًا يقابل دعوة والديه بالإعراض والإنكار؛ ثم تذكر عاقبة الأمم التي سبقت، وتستحضر عادًا في الأحقاف، وتكشف عجز آلهتهم المزعومة عن نصرتهم، وتختم ببيان أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى، وبالأمر للنبي ﷺ بالصبر.

ويمكن رد المحاور الكبرى إلى خمسة محاور مترابطة:

المحور الأول :مصدر الوحي وإبطال الشرك وإقامة برهان الخلق، من الآية الأولى إلى السادسة .وفيه يتأسس البرهان الذي تنبني عليه بقية السورة؛ إذ لا يستقيم الإيمان بالوحي مع اتخاذ شركاء لا يملكون شيئًا من الخلق ولا يستجيبون لدعاء عابديهم.

المحور الثاني :صدق الرسالة ومواقف الناس من القرآن، من الآية السابعة إلى الثانية عشرة . وفيه مواجهة الاعتراض على القرآن، وبيان أنه ليس افتراءً، وذكر شهادة شاهد من بني إسرائيل، وإظهار التفاوت بين من يقبل الحق ومن يستكبر عنه.

المحور الثالث :ثمرات الإيمان في النفس والأسرة والمجتمع، ومآلات التكذيب، من الآية الثالثة عشرة إلى العشرين .ويبرز فيه نموذج الاستقامة، ووصية الوالدين، ومشهد الجاحد، ثم جزاء الفريقين.

المحور الرابع :قصة عاد والاستدلال بمصير الأمم، ثم شهادة الجن للقرآن، من الآية الحادية والعشرين إلى الثانية والثلاثين .وفيه ينتقل الخطاب من إقامة البرهان إلى استحضار التاريخ، ثم إلى شهادة مخلوقات أخرى على صدق ما أعرض عنه المكذبون من الإنس.

المحور الخامس :إثبات البعث وتثبيت الرسول بالصبر، من الآية الثالثة والثلاثين إلى الخامسة والثلاثين .وفيه تكتمل الحجة بإثبات قدرة الله على الإعادة، ويأتي الأمر بالصبر خاتمة عملية لما قررته السورة من سنن الرسالة والتكذيب والجزاء.

وهذا التقسيم تقسيم تحليلي بحسب تتابع الحجج، لا ادعاء بأن حدود المقاطع تمنع تداخل المعاني؛ فالآيات تتساند، وقد يمهد المقطع لما بعده قبل أن يستقل بوظيفته الظاهرة .وهو

قريب من الأغراض التي حررها ابن عاشور في مقدمته للسورة، مع إعادة تنظيمها بحسب الحركة الحجاجية في النص[1] .

❖ **ثانيًا :مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها**

❖ **مناسبتها لسورة الجاثية :** تأتي سورة الأحقاف بعد سورة الجاثية، وهما من الحواميم، وقد اشتركا في افتتاحهما بالحروف المقطعة ﴿حمٓ﴾، ثم ذكر تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم في صدر كل منهما.

قال تعالى في افتتاح الجاثية: ﴿حمٓ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وقال في افتتاح الأحقاف: ﴿حمٓ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وهذا التطابق في الافتتاح ليس مجرد تشابه لفظي؛ بل يهيئ لتلقي السورتين في إطار قضية واحدة :أن هذا القرآن تنزيل من الله، وأن ما يقرره من توحيد وبعث وحساب ليس رأيًا بشريًّا ولا دعوى مفترية.

وقد ختمت الجاثية بذكر ملك الله للسماوات والأرض، والثناء عليه بالعزة والحكمة، فجاءت الأحقاف لتفصل بعض مقتضيات هذين الاسمين :فالعزة تقتضي ألا يكون له شريك ينازعه، والحكمة تقتضي أن يكون خلقه وأمره وشرعه واقعًا على مقتضى الحكمة، وأن يجازي الخلق بما عملوا.

ومن جهة أخرى، ختمت الجاثية بذكر استحقاق الله للحمد والملك، ثم افتتحت الأحقاف بإثبات مصدر الكتاب، وأتبعت ذلك ببرهان خلق السماوات والأرض؛ فكأنها تنتقل من تقرير سلطان الله إلى إقامة الدليل على استحقاقه العبادة وحده.

وتلتقي السورتان كذلك في تقرير البعث والجزاء، وبيان أن من أعرض عن آيات الله لا يفلت من الحساب، وأن الملك يومئذ لله وحده .غير أن الأحقاف تزيد على ذلك باستحضار النماذج التاريخية والإنسانية التي تجعل الحجة أقرب إلى المشاهدة والاعتبار .٦

مناسبتها لسورة محمد: أما السورة التي تلي الأحقاف في ترتيب المصحف فهي سورة محمد ﷺ .

ويظهر التناسب بينهما في انتقال الخطاب من إقامة أصول الإيمان وإثبات صدق الرسالة،

---

١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مقدمة تفسير سورة الأحقاف، في أغراض السورة، مع إعادة صياغة الأغراض في هذا البحث وفق انتظام المقاطع.

إلى بيان مقتضى الإيمان بالرسول واتباع ما أنزل إليه، وما يترتب على ذلك من تمييز بين المؤمنين والمنافقين والكافرين.

فالأحقاف تنتهي بالأمر بالصبر، وهو من لوازم حمل الرسالة، ثم تأتي سورة محمد فتفصل أحوال المؤمنين والكافرين في الاستجابة للوحي، وما يترتب على الإيمان من طاعة ونصرة وثبات.

ولا يلزم من هذا التناسب أن تكون السورتان متجاورتين في تاريخ النزول؛ فإن ترتيب المصحف توقيفي، وترتيب النزول مسألة تاريخية أخرى، ولا يصح الخلط بينهما.

ثالثًا :المعنى الإجمالي للسورة: يفتتح الله تعالى سورة الأحقاف بذكر الحروف المقطعة، ثم يقرر أن الكتاب منزل منه سبحانه، العزيز الذي لا يغلب، الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها .ثم يدعو المشركين إلى النظر في خلق السماوات والأرض، وفي انتظام هذا الكون، ليعلموا أن خالقه هو المستحق للعبادة، وأن ما يدعونه من دونه لا يملك خلقًا ولا تدبيرًا ولا استجابة.

ثم ينتقل السياق إلى القرآن الذي كذب به المشركون، فيبين أن تكذيبهم لا يقوم على حجة، وأنه ليس افتراء على الله، بل هو الحق مصدق لما سبقه من الكتب، وأن شاهدًا من بني إسرائيل شهد بمثله فآمن به، بينما قابل المستكبرون هذه الشهادة بالإنكار.

ويواجه القرآن اعتراضهم على الرسول ﷺ، فيبين أنه ليس أول رسول أرسل إلى البشر، وأنه لا يتبع إلا الوحي، ولا يدعي علم الغيب من تلقاء نفسه، وإنما وظيفته البلاغ والإنذار .ثم يكشف فساد موقف المكذبين حين يزعمون أن القرآن أساطير الأولين، ويطالبهم بأن يأتوا بما هو أهدى منه إن كانوا صادقين.

ثم يبين أن الاستجابة للوحي تظهر في آثارها على النفوس والأعمال، فيذكر الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ويذكر الإنسان الذي يبر والديه، ويبلغ أشده، فيدعو الله أن يوفقه للشكر والعمل الصالح، وأن يصلح ذريته، وأن يتوب إليه.

وفي مقابل هذا النموذج المؤمن، يعرض القرآن نموذج الابن الجاحد الذي يواجه دعوة والديه إلى الإيمان بالبعث بالسخرية والإنكار، فيكشف أن فساد الاعتقاد قد يتجاوز صاحبه إلى علاقاته الأسرية، وأن القرابة لا تنفع من أعرض عن الحق.

ثم يقرر سبحانه أن لكل فريق جزاءه، ويذكر أن الكافرين يعرضون على النار، ويقال لهم إنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها، فاستحقوا العذاب بما كانوا يستكبرون في الأرض بغير الحق ويفسقون.

ومن تقرير الجزاء ينتقل السياق إلى شاهد تاريخي عظيم :أخا عاد، هود عليه السلام، حين أنذر قومه بالأحقاف، ودعاهم إلى عبادة الله وحده .وقد قابلوا دعوته بالاستعجال والاستهزاء، حين رأوا سحابًا مقبلًا فظنوه مطرًا يحمل الخير، فإذا به الريح التي تحمل العذاب الذي استعجلوه .وهكذا انتهى أمر قوم ذوي قوة وبطش إلى الهلاك، ولم تغن عنهم قوتهم ولا آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

ثم يتسع نطاق الشهادة، فيذكر الله إهلاك القرى من حول مكة، وتصريف الآيات للناس لعلهم يرجعون، ويبين أن المعبودات التي اتخذها المشركون قربانًا إلى الله لم تستطع نصرتهم حين نزل بهم بأسه.

وبعد هذا العرض التاريخي تأتي شهادة الجن؛ إذ صرف الله نفرًا منهم إلى النبي ﷺ يستمعون القرآن، فلما سمعوه أنصتوا، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ودعوهم إلى الإيمان برسالة موسى والكتاب المصدق لما بين يديه، وأخبروهم بأن الله يغفر الذنوب ويجير من عذاب أليم .وفي ذلك بيان أن الحق لا يُرد إلا من أهل الاستكبار، وأن من طلب الهدى وأنصت للقرآن انتفع به، وإن كان من غير الإنس.

وتختتم السورة بإقامة البرهان على قدرة الله على البعث، من خلال خلق السماوات والأرض، ثم تأمر النبي ﷺ بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وألا يستعجل لهم، وأن يستحضر قرب اليوم الذي يرون فيه ما وعدوا به .وبذلك يعود ختام السورة إلى أولها :الكتاب منزل من العزيز الحكيم، والخلق ملك له، والجزاء واقع بأمره، والرسول مبلغ عنه، والصبر سبيل الثبات على دعوته.

❖ رابعًا :التفسير التفصيلي للسورة

❖ المقطع الأول :تنزيل الكتاب وإقامة البرهان على بطلان الشرك

الآيات :من الأولى إلى السادسة.: نص آيات المقطع: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ

كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [1].

تفسير الآيات

افتتاح السورة :﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

يقول تعالى :﴿حمٓ﴾ هذه من الحروف المقطعة التي افتتحت بها طائفة من سور القرآن، وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بها على أقوال .فمنهم من أمسك عن تعيين معناها، ورد علم حقيقتها إلى الله تعالى، ومنهم من نظر إليها من جهة ما تشتمل عليه من التنبيه إلى جنس الحروف التي يتألف منها الكلام العربي، مع عجز المخاطبين عن الإتيان بمثل هذا القرآن، على الرغم من أن مادته اللفظية من الحروف التي يعرفونها وينطقون بها.

والذي ينبغي تقريره أن هذه الحروف من المتشابه الذي لم يثبت فيه تفسير مرفوع صريح يقطع بمعنى معين، فلا يصح الجزم بأن المراد بكل حرف منها اسم مخصوص أو صفة مخصوصة لله تعالى، وإن كانت أقوال العلماء في ذلك مذكورة في كتب التفسير.

والمناسب لسياق السورة أن يلحظ القارئ مجيء هذه الحروف متبوعة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ فإن السورة تفتتح بالإشارة إلى القرآن، ثم تقيم الأدلة على مصدره الإلهي، وتكشف فساد الشرك الذي يناقض ما جاء به.

ثم قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ و"التنزيل" مصدر نزّل، وفي اختيار صيغة التفعيل إشعار بوقوع الإنزال على وجه مقصود، متدرج بحسب ما اقتضته حكمة الله في تبليغ رسالته، وليس المقصود مجرد الإخبار عن وجود كتاب، وإنما بيان مصدره وحقيقة نسبته.

وجاء النص بـ﴿الْكِتَابِ﴾ معرفًا؛ لأن المقام مقام التعريف بالكتاب المعهود الذي نزل على محمد ﷺ، وهو القرآن الكريم .فليس الحديث عن كتاب مجهول، وإنما عن كتاب تتحدد هويته بمصدره الإلهي ومضمونه الهادي.

---

١ الأحقاف: ١-٦.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يقرر أن مصدر هذا الكتاب هو الله سبحانه، وفي ذلك رد مقدم على دعوى المشركين أنه من اختلاق الرسول أو من تعليم البشر؛ فالكتاب ليس منشؤه عقل محمد ﷺ، ولا هو نتاج ثقافة بشرية، وإنما هو وحي من الله.

ثم وصف سبحانه نفسه بوصفين عظيمين :﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

فالعزيز هو الغالب الذي لا يُقهر، الممتنع الذي لا يعجزه شيء، والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها، ويجري أمره على مقتضى الحكمة والعلم.

واجتماع الوصفين هنا ذو دلالة ظاهرة؛ فإن العزيز قد يظن الجاهل أن غلبة القدرة وحدها هي التي تفسر الأمر، فجاء وصف الحكيم ليبين أن التنزيل ليس فعلًا مجردًا عن الحكمة، بل هو صادر عن علم تام وتدبير محكم .كما أن الحكمة لا تعني العجز عن إنفاذ الأمر، بل هي مقترنة بالعزة والقدرة.

ولما كان المشركون ينكرون الوحي ويشركون بالله، كان افتتاح السورة بهذين الاسمين تمهيدًا لإبطال موقفهم :فالذي أنزل الكتاب هو وحده العزيز الحكيم، وهو الذي خلق الكون ودبره، فلا يستحق العبادة غيره.

وفي هذا اتصال وثيق بين مطلع السورة وخاتمتها؛ إذ ستنتهي السورة إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرة الله على إحياء الموتى، ثم إلى الأمر بالصبر على طريق الرسالة .

فالكتاب والخلق والجزاء والرسالة تجتمع في مرجعية واحدة هي رب العالمين.

خلق الكون بالحق :﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

ثم يقول سبحانه :﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

بعد أن قرر أن الكتاب منزل من الله العزيز الحكيم، أقام الدليل على استحقاق منزله للعبادة وحده؛ فانتقل من خبر الوحي إلى آية الخلق، ومن بيان مصدر الهداية إلى بيان مصدر الوجود.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا﴾ نفي وإثبات، فالنفي بـ"ما"، والاستثناء بـ"إلا"، يفيدان قصر الخلق على كونه واقعًا بالحق، أي لم يكن خلق السماوات والأرض عبثًا أو باطلًا أو لعبًا، وإنما خلقهما الله لحكمة وغاية.

والمراد بالحق هنا ما يقابل الباطل والعبث، ويدخل فيه أن الخلق واقع على نظام محكم، وأن وراء وجوده حكمة إلهية، وأنه ليس مستقلًا عن غاية ينتهي إليها، بل يتصل بالتكليف والابتلاء والجزاء.

ولم يقل سبحانه :خلقنا السماوات والأرض فحسب، بل قال :﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ليشمل ما في هذا العالم من مخلوقات وأحوال ومنافع، فلا يختص النظر بالجرمين العظيمين، بل يتناول ما بينهما مما لا يحصى من الخلق والتدبير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي خلقهما بالحق ولأجل مسمى، أو أن خلقهما مستمر إلى أجل قد عينه الله .والمعنيان متقاربان من جهة أن هذا العالم ليس أزليًّا، ولا باقيا بقاءً مطلقًا، وإنما له نهاية معلومة عند الله.

وقد ذكر المفسرون في المراد بالأجل المسمى أنه أجل فناء الدنيا وقيام الساعة، وقيل :أجل كل مخلوق وما قدر له من مدة .والذي يظهر أن المعنى العام يتسع لأجل العالم الذي ينتهي عنده هذا النظام الدنيوي، من غير حاجة إلى قصر اللفظ على تفصيل لم يرد به نص في الآية.

وهنا تبرز صلة الآية بما بعدها؛ فإذا كان الكون مخلوقًا بالحق، وله أجل ينتهي إليه، فإن الإعراض عن الإنذار الذي يخبر عن ذلك المصير ليس مجرد خلاف فكري، بل هو إعراض عن الحقيقة التي ينتظم بها الوجود ومآله ؛ ولهذا عقب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

والإنذار إعلام بالمخوف على وجه التحذير، وهو هنا إنذار الرسول ﷺ بما يترتب على الكفر من عذاب، وبما ينتظر الناس من البعث والحساب.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ يفيد أن المعرضين لم يكونوا في غفلة محضة عن أصل الدعوة، وإنما بلغهم الإنذار وقامت عليهم الحجة، ثم اتخذوا موقف الإعراض.

وتقديم الجار والمجرور ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ على الخبر ﴿مُعْرِضُونَ﴾ يوجه النظر إلى متعلق الإعراض، وهو الإنذار الذي كان ينبغي أن يوقظهم، لكنهم أعرضوا عنه.

والنص باسم الفاعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ يفيد رسوخ هذه الصفة في موقفهم واستمرارها، فلا يصور مجرد إعراض عارض، وإنما حالًا قائمة بهم.

وفي هذا انتقال من بيان حقيقة الخلق إلى تصوير موقف الإنسان من دلالته :فالكون يشهد بالحق، والكتاب ينذر بالحق، لكن الكافرين يعرضون عما أنذروا به .وهنا تنكشف المفارقة بين وضوح الدليل وفساد الاستجابة.

إقامة الحجة على بطلان المعبودات :﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾

ثم يأمر الله نبيه ﷺ أن يواجههم بالسؤال الذي يكشف خلو معبوداتهم من أي برهان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام يراد به حمل المخاطب على النظر والاعتبار، لا مجرد طلب العلم منه .وهو هنا استفهام تقريري إنكاري، يضع المشركين أمام حقيقة لا يستطيعون دفعها :ما الذي خلقته آلهتهم حتى تستحق العبادة؟

و"ما" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ تحتمل أن تكون موصولة، أي الذي تدعونه، ويحتمل أن يراد بها جنس ما يعبدونه من دون الله، من الأصنام والمعبودات .والمعنى في الحالين متجه إلى إبطال استحقاق تلك المعبودات للعبادة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرُونِي﴾ أمر يراد به التعجيز والتحدي، أي هاتوا برهانًا محسوسًا أو عقليًّا على أن هذه المعبودات شاركت في الخلق.

ثم جاء السؤال الأول :﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

وهذا استفهام يطالبهم بتعيين مخلوق واحد أوجدته آلهتهم، لا بمجرد دعوى أنها تقربهم إلى الله أو تشفع لهم عنده .فالخلق هو أصل الملك والتدبير، ومن لا يخلق شيئًا لا يستحق أن يعبد.

ثم ارتقى بهم إلى السؤال الثاني :﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

فإن عجزوا عن إثبات خلق شيء من الأرض، فهل لهم مشاركة في خلق السماوات؟ وهذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى في ميدان الاحتجاج، ومن مخلوقات الأرض إلى هذا البناء الكوني العظيم.

وليس المقصود مجرد نفي القدرة عن الأصنام المادية، بل نفي كل مشاركة في الربوبية والإيجاد والتدبير عمن اتخذوه شريكًا لله.

ثم قال الله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.
بعد أن طالبهم بالبرهان العقلي المشاهد، طالبهم بالدليل النقلي أو الأثر العلمي الموروث.
فالكتاب من قبل القرآن هو ما يمكن أن يحتجوا به من الوحي السابق، وأما ﴿أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فهي بقية من علم مأثور، أو أثر من حجة صحيحة يستند إليها صاحبها.
وقد اختلف أهل اللغة والتفسير في ضبط لفظ "أثارة" وتفسيره، فقيل :بقية من علم، وقيل : رواية مأثورة، وقيل :علامة من علم .وهذه الأقوال متقاربة في أصل الدلالة، وهو طلب حجة معتبرة لم تأت بها الدعوى المجردة.
والذي يظهر من سياق الآية أن القرآن جمع لهم وجوه الاحتجاج :فإما أن يأتوا ببرهان من المشاهدة يدل على خلق آلهتهم، وإما أن يأتوا بمشاركة ثابتة في السماوات، وإما أن يستندوا إلى كتاب سابق أو علم مأثور .فلما انتفت هذه الوجوه جميعًا، ظهر أن الشرك دعوى لا تقوم على دليل.
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط يكشف تناقض الدعوى مع البرهان؛ فصدق الاعتقاد لا يثبت بمجرد التوارث أو شدة التعلق بالمعبود، بل لا بد له من مستند.
وفي هذا رد على أصل التقليد الذي لا يستند إلى حجة، لا على مطلق الاستفادة من علم السابقين؛ فإن القرآن نفسه يأمر بالاعتبار بما جاء به الأنبياء، وإنما المذموم أن يجعل الإنسان ما ورثه حجة مع قيام البرهان على بطلانه.

من أضل ممن يعبد العاجز؟ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو...﴾

ثم ينتقل الخطاب من مطالبة المشركين بالدليل إلى تقويم فعلهم نفسه، فيقول الله تعالى:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.
أي لا أحد أشد ضلالًا ممن يترك دعاء الله الذي يسمع ويجيب، ويتوجه إلى مخلوقات لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا تستجيب لدعائه أبدًا.
والاستفهام في ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ إنكاري، يفيد بلوغ الضلال غايته، لأن العابد هنا يجمع بين فساد المقصود وفساد الوسيلة؛ فهو يطلب النفع ممن لا يملك النفع، ويستغيث بمن لا يسمع استغاثته.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ يتناول الأصنام التي لا حياة فيها، ويدخل في المعنى كل ما عُبد من دون الله مما لا يملك إجابة الداعين .وليس المراد أن جميع المعبودات في حقيقتها على حال واحدة؛ فإن عيسى عليه السلام والملائكة عباد لله مكرمون، لا يرضون أن يعبدهم أحد من دون الله .وإنما الآية تصف عجز المعبودات عن الاستجابة، وتبين أن دعاءها لا يجعلها آلهة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية في بيان دوام العجز؛ فلا ينتظر العابد أن تتحول هذه المعبودات إلى قوى مستجيبة بعد حين، ولا أن تنقلب حقيقة حالها بمرور الزمن.

ثم قال :﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

والضمير في ﴿هُمْ﴾ يعود إلى المدعوين من دون الله، على ما يظهر من السياق .والمراد أنهم لا يشعرون بدعاء عابديهم، ولا يملكون إجابتهم.

وقد يقال :كيف توصف الأصنام بالغفلة وهي جمادات لا تعقل؟ والجواب أن النص يجري على تصوير حالها بالنسبة إلى الداعين، فهي لا تسمع ولا تعقل ولا تستجيب، فكأنها غافلة عنهم، بل إن حالها أشد من حال من يسمع ثم يعرض؛ لأنها لا تملك أصل الإدراك والاستجابة.

وفي الآية تقريع شديد للمشرك؛ إذ كيف يرضى لنفسه أن يخضع لموجود لا يشعر به، بينما يعرض عن الله الذي خلقه ويراه ويسمع دعاءه؟

ثم يكشف السياق المآل الأخروي لهذه العلاقة الفاسدة، فيقول: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

أي إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، صار هؤلاء المعبودون الذين اتخذهم المشركون آلهة أعداءً لهم، وتبرؤوا من عبادتهم، وأنكروا أن يكونوا رضوا بها أو دعوا الناس إليها.

والضمير في ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يعود إلى المعبودات، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ إلى العابدين، أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فيبين حقيقة موقفهم يوم القيامة؛ أي جاحدين لعبادة المشركين لهم، متبرئين منها.

ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في موضع آخر على لسان عيسى عليه السلام:﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [1].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [2].

فليس المعبود الباطل شفيعًا لعابده كما توهم، بل ينقلب يوم القيامة خصمًا له، ويتحول ما كان يظنه العابد سببًا للقرب إلى حجة عليه.

وتأمل كيف انتظمت الآيات في حجة واحدة :بدأت ببيان أن الخلق لله وحده، ثم طالبت المشركين بإثبات شيء من الخلق لمعبوداتهم، ثم كشفت عجزها عن الاستجابة، ثم انتهت إلى مصير العلاقة بين العابد والمعبود .فبدأت الحجة من أصل الربوبية، وانتهت إلى بطلان العبادة، ثم إلى انكشاف عاقبتها في الآخرة.

وهذا هو وجه اتصال المقطع بما بعده؛ فإن السورة بعد أن أبطلت الشرك من جهة الخلق والاستجابة والمآل، تنتقل إلى بيان حقيقة الوحي والرسالة التي جاء بها النبي ﷺ، وتكشف أن الإعراض عنها ليس نتيجة نقص في البرهان، بل هو موقف يتخذه المستكبرون مع قيام الحجة عليهم.

تحرير بعض المسائل المتعلقة بالمقطع

أولًا :هل الاستدلال بالخلق وحده كافٍ لإبطال الشرك؟

الآيات تقيم الاستدلال على الخلق أساسًا لإثبات انفراد الله بالربوبية، ثم تنتقل إلى نفي استحقاق غيره للعبادة .وهذا من أصول الاستدلال القرآني؛ لأن من انفرد بالخلق والتدبير هو المستحق للعبادة، أما المخلوق العاجز فلا يستحق أن يصرف إليه شيء من خصائص العبادة.

ولا يلزم من إثبات أن الله هو الخالق وحده أن يكون المخاطب قد أقر بجميع لوازم التوحيد؛ ولذلك لم تكتف الآيات بإقامة برهان الخلق، بل أتبعته بإظهار عجز المعبودات عن الاستجابة، ثم بيان تبرئها من عابديها يوم القيامة.

ثانيًا :ما المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؟

---

١١ المائدة: ١١٧.

٢ فاطر: ١٤.

المعنى المحرر هو مطالبة المشركين بأصل من العلم الموروث أو دليل معتبر يؤيد دعواهم .
واختلاف عبارات السلف وأهل اللغة في تفسير الأثارة لا يوجب اختلافًا جوهريًّا في المعنى؛ لأن الأقوال تدور حول بقية من علم أو أثر من حجة أو رواية لها أصل.
ولا يصح أن يُجعل كل موروث حجة بمجرد قدمه، وإنما العبرة بصحة مستنده ودلالته.

ثالثًا :هل الأصنام تعادي عابديها يوم القيامة؟

نعم، يدل ظاهر الآية على تبرؤ المعبودات الباطلة من عبادة عابديها، وتحول العلاقة التي أقامها المشركون معها إلى عداوة وخصومة .ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.
وينبغي التفريق بين الأصنام التي لا تعقل، والمخلوقات العاقلة التي عبدها الناس بغير حق؛ فالأنبياء والملائكة والصالحون يتبرؤون من عبادة من عبدهم، ولا يلحقهم من ذنب العابدين شيء.

رابعًا :القراءات القرآنية

لا يظهر في هذا المقطع اختلاف متواتر يقتضي إنشاء معنى تفسيري مستقل عن المعنى الذي تقدم .أما الأوجه اللغوية في لفظ ﴿أَثَارَةٍ﴾ فهي من مسائل اللغة والتفسير، ولا ينبغي الخلط بينها وبين اختلاف القراءات المتواترة.

خامسًا :الصلة بين المقطع ومقصد السورة

هذا المقطع يؤسس القضية التي ستتكرر أدلتها في السورة كلها :أن الحق لا يقوم على مجرد الدعوى، وأن العبادة لا تستحق إلا للخالق، وأن الإعراض عن الوحي لا يغير حقيقة الوجود ولا يمنع وقوع الجزاء.

المقطع الثاني :صدق الوحي ومواقف الناس من القرآن والرسالة

هذا المقطع يمثل انتقالًا من إبطال الشرك وإقامة الدليل على فساد المعبودات إلى إثبات صدق الوحي والرسالة، ومواجهة الاعتراضات التي أثارها المكذبون في شأن القرآن.

الآيات :السابعة إلى الثانية عشرة.

نص آيات المقطع:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [1].

تفسير الآيات

أولًا :مواجهة القرآن بالتكذيب عند ظهوره

يقول تعالى :﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

بعد أن أقام سبحانه في المقطع السابق الحجة على بطلان الشرك، وأظهر عجز المعبودات عن الخلق والاستجابة، انتقل إلى بيان موقف المشركين من الدليل الذي جاءهم من الله، وهو القرآن الكريم .فالمشكلة لم تعد مجرد فساد في تصور حقيقة الإله، بل ظهرت كذلك في طريقة استقبال الوحي نفسه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يدل على تجدد تلاوة الآيات عليهم، واستمرار عرض الحجة في أسماعهم .والتلاوة ليست مجرد قراءة ألفاظ، بل هي قراءة يتبع بعضها بعضًا، وفي هذا إشعار بتتابع البيان وإقامة الحجة.

---

١ الأحقاف: ٧-١٢.

وإضافة الآيات إلى ضمير العظمة في ﴿آيَاتِنَا﴾ تشريف لها، وإثبات لمصدرها، فهي ليست كلامًا بشريًّا منسوبًا إلى صاحبه، وإنما هي آيات الله التي أنزلها هداية للخلق وحجة عليهم.
أما وصفها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾، فيحتمل أن يكون حالًا من الآيات، أي تتلى عليهم ظاهرة الدلالة، واضحة البرهان، لا يلتبس وجه الحق فيها على من طلبه .ويجوز أن يكون المراد أنها مبينات لما اشتملت عليه من الهدى والحق .والمعنيان متلازمان؛ إذ إن وضوح الدلالة ناشئ عن قيام البيان في نفس الآيات.
ثم قال :﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾.
واللام في ﴿لِلْحَقِّ﴾ متعلقة بقولهم، أي قالوا في شأن الحق حين جاءهم .ووضع الحق موضع القرآن من باب النص عن حقيقة الشيء ومضمونه؛ فالقرآن هو الحق الذي جاءهم، لكنهم لم يواجهوه ببرهان ينقضه، بل وصفوه بما يصرف الناس عن سماعه.
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يفيد مبادرتهم إلى هذا الوصف عند مجيء الحق، وفيه تصوير لسرعة رد الفعل قبل التثبت والتأمل .فلم يذكر أنهم نظروا في حجه ثم عجزوا عن دفعها، بل ذكر قولهم فور مجيئه.
ثم حكى قولهم :﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. والسحر في أصل استعمال العرب ما خفي سببه ولطف مأخذه، ثم أطلق على ما يلبس به على الناظر ويخيل إليه غير الحقيقة .فوصفهم القرآن بالسحر يراد به اتهامه بأنه كلام يخدع الأسماع والعقول ويؤثر في النفوس بغير حق.
ووصفهم إياه بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ يحتمل معنى ظاهر السحر، أي إنه عند زعمهم سحر واضح لا خفاء فيه، وهو وصف على جهة التهكم والافتراء، لا تقرير لحقيقة القرآن.
وهنا تظهر المفارقة بين وصف الله للآيات بأنها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾، ووصف المشركين لها بأنها ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .فالمعنى الذي جاء ليكشف الحقائق اتهموه بأنه يموهها، والبيان الذي يحرر العقول وصفوه بأنه خداع .وهذا من أعظم صور انقلاب الموازين حين يستولي الهوى على النظر.
ولم يقل سبحانه :قالوا للرسول إن هذا سحر، بل قال :﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾، وفي ذلك عناية ببيان موقفهم من الحقيقة ذاتها، لا من شخص الرسول فحسب؛ لأنهم لم يكتفوا بمخاصمة حامل الرسالة، بل اتخذوا من الحق الذي جاء به موضعًا للطعن.

وهذا السياق يهيئ لما بعده؛ إذ ينتقل من حكاية اتهام القرآن بالسحر إلى حكاية اتهامه بالافتراء، ثم يرد على ذلك بإرجاع القضية إلى علم الله وشهادته.

ثانيًا :إبطال دعوى الافتراء وإقامة شهادة الله

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

الاستفهام في ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ انتقالي، ينتقل من حكاية قولهم إنه سحر إلى حكاية قول آخر، وهو أنه افتراء من النبي ﷺ .وليس المراد أن الاتهامين متناقضان بحيث يمتنع صدورهما عنهم؛ فإن أهل العناد قد يتنقلون بين التهم بحسب ما يظنون أنه أبلغ في صرف الناس عن الحق.

فالقول الأول يصور القرآن على أنه تأثير سحري، والثاني ينسب مصدره إلى اختلاق بشري . وكلاهما يهدف إلى إبطال نسبته إلى الله.

والضمير في ﴿افْتَرَاهُ﴾ يعود إلى القرآن، أي اختلقه محمد ونسبه إلى الله كذبًا.

ثم يأمر الله نبيه أن يجيبهم بما يقطع مادة هذه الدعوى:

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. أي إن كنت قد اختلقت هذا القرآن ونسبته إلى الله، فلا تملكون أنتم دفع عقابه عني، ولا تملكون أن تنصروني إذا أخذني بما افترَيت عليه .فكيف أنسب إليه ما لم يقله، وأعرض نفسي لعقوبته، ثم أستعين بكم على دفعها؟

وفي هذا إلزام للمشركين من جهة العاقبة؛ لأنهم يزعمون أن الرسول ﷺ يختلق القرآن طلبًا لمصلحة دنيوية أو رغبة في الرياسة، والآية ترد عليهم بأن هذا الفعل لو وقع لكان موجبًا للعقوبة الإلهية، ولا يستطيعون هم حمايته منها.

والنص بـ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ أبلغ من مجرد نفي النصرة؛ لأن الملك يدل على تمام القدرة والتصرف، فإذا انتفى ملكهم لأي شيء من أمره، انتفت قدرتهم على إنقاذه مما يقدره الله عليه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يفيد أن ما يملكه البشر من أسباب الحماية لا يقف أمام حكم الله إذا أراد إنفاذه .وهذا من جهة أخرى بيان لصدق الرسول ﷺ؛ إذ يعلن أمام خصومه أنه لا يستند إلى حمايتهم ولا يملك لنفسه استقلالًا عن ربه.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي الله سبحانه أعلم بما تخوضون فيه من القول في القرآن والرسول، وما تثيرونه من دعاوى واتهامات .و"الإفاضة" في الكلام هي الخوض فيه والتوسع، وقد تستعمل في الدخول في الأمر والاندفاع فيه.

وفي النص بالفعل المضارع ﴿تُفِيضُونَ﴾ إشعار باستمرارهم في هذا الخوض وتجدد أقوالهم، وأن ما يثيرونه ليس أمرًا عارضًا انتهى، بل موقف يتكرر ويتسع.

ثم قال :﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. أي كفى بالله شاهدًا على صدقي وصدق ما أبلغكم، وعلى حقيقة ما تقولونه وتدّعونه .وفي هذا تفويض للفصل في النزاع إلى من لا تخفى عليه خافية.

والباء في ﴿بِهِ﴾ زائدة في تركيب الإسناد على الوجه المعروف في أسلوب "كفى به"، ولفظ الجلالة ضمير يعود إلى الله تعالى .والمعنى :يكفيني الله شاهدًا بيني وبينكم.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ تصوير للموقف على أنه خصومة قائمة بين فريقين، لكن الحكم ليس إلى كثرة الأنصار ولا إلى قوة الحجة البشرية المجردة، بل إلى شهادة الله الذي يعلم السر والعلن.

ثم ختم الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا الختام يفتح باب الرجوع ولا يقصر السياق على الوعيد .فالله سبحانه، مع كمال علمه بما يخوضون فيه، غفور لمن تاب وأناب، رحيم بعباده إذا رجعوا إلى الحق.

وفي الجمع بين الشهادة والمغفرة والرحمة دلالة على أن قيام الحجة لا يعني إغلاق باب التوبة؛ فالحق واضح، والباطل مردود، لكن من رجع بعد ضلاله لم يمنعه سابق موقفه من رحمة الله.

وهذا من إحكام النظم؛ إذ لم تختم الآية باسم العزيز القهار أو المنتقم، مع أن المقام مقام تهديد، بل ختمت باسمَي المغفرة والرحمة؛ لتبقى الدعوة مفتوحة، وليعلم المخاطبون أن العناد ليس الطريق الوحيد الممكن، وأن الرجوع إلى الله خير لهم.

ثالثًا :بيان حقيقة الرسالة ونفي كون النبي ﷺ أول الرسل

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

بعد أن حكى الله عن المشركين اتهامهم القرآن بالسحر والافتراء، أمر رسوله ﷺ أن يبين لهم حقيقة مقامه من الرسالة، وأنه ليس أول رسول ظهر في البشرية، ولا جاء بدعوة منفصلة عن سنن الأنبياء قبله، وإنما هو رسول من جنس الرسل الذين أرسلهم الله لهداية الناس وإنذارهم.

قول الله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ "البدع" في اللغة هو الشيء المبتدأ الذي لم يسبق إليه نظير، ومنه قولهم :أبدع الشيء إذا أنشأه على غير مثال سابق.

والمعنى :لست أول رسول أرسله الله إلى خلقه، فقد سبقني رسل كثيرون، جاؤوا إلى أقوامهم بالتوحيد والإنذار، واختلفت أحوال أقوامهم في الاستجابة والتكذيب.

وهذا المعنى هو الذي نقله الطبري عن قتادة، وعن ابن عباس، وجمهور المفسرين [1].

ولم يقل سبحانه :ما كنت أول الرسل، مع أن ذلك يؤدي المعنى، بل اختار لفظ ﴿بِدْعًا﴾ لما فيه من دلالة على انتفاء الانفراد بالحدث أو الخروج عن المألوف؛ فالرسالة ليست أمرًا مستحدثًا لم تعرفه البشرية، بل هي امتداد لسنة إلهية متكررة في إرسال الرسل.

وفي هذا رد على استغراب المشركين أن يبعث الله بشرًا رسولًا؛ لأن بعث الرسل من البشر سنة سابقة، لا أمر طارئ يختص به محمد ﷺ.

كما أن في الآية تثبيتًا للرسول ﷺ؛ فإن ما يلقاه من تكذيب قومه ليس أمرًا لم يقع لرسول قبله، بل هو من سنن الدعوة، وقد جرى على الأنبياء من قبل ما جرى عليه من التكذيب والمخاصمة.

وهذا المعنى يتصل بالمقطع السابق؛ إذ لما اتهموه بالافتراء، بيّن أن أصل الرسالة ليس أمرًا غريبًا، وأنه لا ينشئ من عند نفسه طريقًا جديدًا، بل يسير على سنة المرسلين.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾

هذه من الآيات التي تحتاج إلى تحرير دقيق؛ لما ورد فيها من أقوال، ولما يتعلق بها من مسائل عقدية في علم النبي ﷺ بالغيب.

ظاهر الآية أن النبي ﷺ لا يعلم من تلقاء نفسه ما يقع له وللمخاطبين من تفاصيل المستقبل، وأن علمه بذلك تابع لما يعلمه الله إياه بالوحي.

---

١ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية التاسعة، في بيان معنى ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾. وينظر: تفسير ابن كثير، الموضع نفسه.

وقد اختلف المفسرون في المراد بما يفعل به وبهم، على أقوال ترجع في الجملة إلى اتجاهين:
الأول :أن المراد ما يقع في الدنيا من أحوال الفتح والهجرة والنصر والابتلاء، وما يصيب الفريقين من أحداث لم يكن قد نزل في شأنها وحي يبينها.
والثاني :أن المراد ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من تفاصيل الجزاء، قبل أن يعلمه الله تعالى به.
وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية منسوخة أو مبيّنة بما نزل بعدها من الوحي الذي أخبر النبي ﷺ بمغفرة ذنبه وما يترتب على إيمانه وإيمان المؤمنين من الجزاء، واستدلوا بآيات من سورة الفتح.
غير أن وصف الآية بالنسخ ليس لازمًا؛ إذ لا تعارض بين نفي العلم المستقل بالغيب وبين حصول العلم به بعد ذلك بواسطة الوحي .فالآية لا تنفي أن الله يطلع رسوله على ما يشاء من الغيب، وإنما تنفي أن يكون الرسول مالكًا لهذا العلم من ذاته.
ويشهد لهذا الأصل قول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [1].
وقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [2].
فالعلم بالغيب لله وحده استقلالًا، وقد يطلع الله رسله على بعضه بحسب ما تقتضيه حكمته.
والذي يظهر من سياق سورة الأحقاف أن الآية تؤكد أن النبي ﷺ لا يتصرف في أمر الرسالة بحسب علم شخصي مستقل بالمستقبل، وإنما يتبع ما يوحى إليه، وهذا هو الذي ينسجم مع قوله بعدها مباشرة :﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.
وهنا ينبغي التفريق بين ثلاثة أمور:

- علم الغيب استقلالًا، وهذا مختص بالله تعالى.
- علم الرسول بما أطلعه الله عليه من الغيب، وهذا ثابت بالوحي.
- ما لم يطلعه الله عليه، فلا يجوز أن ينسب إليه العلم به من تلقاء نفسه.

فلا تدل الآية على نفي كل علم للنبي ﷺ بالمستقبل، كما لا تدل على إثبات علم مطلق له بالغيب.

---

١ الجن: ٢٦-٢٧.
٢ الأنعام: ٥٠.

وقد صح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إنكارها على من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب، واستدلت بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ النمل : ٦٥ .أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، في تفسير سورة النجم، في سياق بيان علم الغيب .والمقصود تقرير اختصاص الله بعلم الغيب استقلالًا، لا إنكار ما أخبر الله به رسوله من المغيبات.

وقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ هذه الجملة تفسر ما قبلها وتكشف أصله؛ فعدم علم الرسول بما لم يعلمه الله إياه ليس نقصًا في مقام النبوة، وإنما هو من مقتضى العبودية والرسالة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا﴾ أسلوب قصر بالنفي والاستثناء، يفيد أن مصدر التلقي في شأن الرسالة هو الوحي وحده.

والنص بالفعل المضارع ﴿أَتَّبِعُ﴾ يدل على استمرار هذا الاتباع وتجدد مقتضاه، فهو ليس اتباعًا وقع في الماضي وانقضى، وإنما هو وصف ملازم للرسول في تبليغ أمر الله.

وفي هذا إبطال لدعوى الافتراء التي حكاها في الآية السابقة؛ إذ لو كان القرآن من اختلاقه، لما كان لهذا التصريح بالاتباع الحصري للوحي وجه، ولا سيما أنه يقرر أمام خصومه أنه لا يتجاوز ما أمره الله به.

ثم قال سبحانه :﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. أي لست إلا رسولًا أنذر الناس بما أوحاه الله إليّ، وأبين لهم طريق الحق من طريق الباطل، وأحذرهم من عاقبة الكفر والمعصية.

وتقديم النفي والاستثناء في ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا﴾ يحدد الوظيفة التي كلف بها الرسول ﷺ في هذا المقام، فلا يطلب منه أن يأتي بما لم يأذن الله به، ولا أن يملك خزائن الرحمة أو العذاب، وإنما عليه البلاغ والإنذار.

ووصف الإنذار بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ يفيد وضوحه في نفسه وإبانته للحق؛ فهو ليس إنذارًا غامضًا، ولا تهديدًا مجردًا من الدليل، بل إنذار مصحوب بالبيان والحجة.

وبذلك تتكامل الجملة مع صدر الآية :فهو ليس بدعًا من الرسل، ولا يعلم الغيب استقلالًا، ولا يتبع إلا الوحي، وإنما يؤدي وظيفة الإنذار والبيان.

وهذا من أصول فهم مقام النبوة في القرآن :فالرسول عبد لله من جهة العبودية، ورسول من جهة الاصطفاء والتبليغ، فلا يخرج عن مقتضى بشريته، ولا تنقص بشريته من مقام الرسالة الذي اختاره الله له.

رابعًا :شهادة شاهد من بني إسرائيل ومواجهة الاستكبار بالحجة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

هذه الآية من أدق آيات المقطع من جهة تركيبها، ومن أكثرها تعرضًا لاختلاف المفسرين في تعيين الشاهد وبيان وجه شهادته.

والسياق فيها انتقال من مخاطبة الرسول ﷺ ببيان حقيقة رسالته إلى إقامة حجة على المشركين من طريق شهادة شخص من أهل الكتاب، ممن يعرفون أصل الوحي والكتب السابقة.

قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾

أي أخبروني، إن كان هذا القرآن من عند الله حقًّا، ثم كفرتم به، فما موقفكم حين تقوم الحجة عليكم؟

والاستفهام هنا ليس لطلب خبر يجهلونه، وإنما للتنبيه على خطورة الموقف الذي اتخذوه، وحملهم على تصور عاقبته.

والمقصود بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ القرآن الذي كذبوا به، ومرجع الضمير في ﴿بِهِ﴾ إليه.

والشرط يضع المخاطب أمام احتمال لا يجوز له تجاهله :فإن كان القرآن حقًّا من عند الله، فالكفر به ليس خلافًا في وجهة نظر، بل هو رد للوحي بعد قيام الدليل.

ثم قال :﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

أي شهد رجل من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن، بما عنده من العلم بالكتاب السابق، فوجد فيه ما يوافق القرآن ويشهد لأصل رسالته.

وقد اختلف أهل التفسير في المراد بالشاهد، وفي معنى شهادته على مثله.

القول الأول :أن الشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

وهو قول جماعة من السلف، ومنهم ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة، ونقله الطبري عن عدد من أهل العلم.

وعلى هذا القول يكون معنى الآية أن رجلًا من علماء بني إسرائيل شهد بأن ما جاء به محمد ﷺ حق، وأنه موافق لما عرفه من البشارات والصفات في الكتاب السابق، فآمن بالرسالة، بينما استكبر المشركون عن قبولها.

وقد ورد في هذا المعنى خبر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال :ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام[1]

القول الثاني :أن الشاهد هو موسى عليه السلام، وأن المراد بالتوراة أنها مثل القرآن.

نقل الطبري هذا المعنى عن مسروق والشعبي، ووجهه أن موسى عليه السلام جاء بالتوراة من عند الله، وهي كتاب هداية وشريعة، كما أن محمدًا ﷺ جاء بالقرآن من عند الله.

وعلى هذا يكون المعنى :إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، وشهد موسى على مثل هذا الكتاب، أي شهدت التوراة بأصل ما جاء به القرآن من التوحيد والنبوة والبعث، فكيف تكفرون؟

وقد رجح الطبري أن هذا القول أشبه بظاهر السياق من جهة أن الآيات قبلها تخاطب مشركي قريش، ولم يجر فيها ذكر لليهود حتى يصرف الخطاب إليهم.

لكنه ذكر كذلك الروايات الواردة عن جماعة من الصحابة في أن المراد عبد الله بن سلام، وأن أكثر أهل التأويل ذهبوا إلى ذلك [2].

والتحقيق هنا يقتضي ألا نخلط بين أمرين:

الأول :تعيين الشخص المراد بالشاهد في ظاهر الآية.

والثاني :صحة الروايات التي ربطت الآية بإسلام عبد الله بن سلام، وما يترتب على ذلك من البحث في زمن نزولها.

---

١ البخاري، الصحيح، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عبد الله بن سلام، حديث رقم ٣٨١٢. وينظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تفسير الآية العاشرة من سورة الأحقاف.

٢ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية العاشرة. وقد عرض القول بأن الشاهد موسى عليه السلام، والقول بأنه عبد الله بن سلام، وذكر مستند كل منهما، ثم رجح قول مسروق من جهة ظاهر السياق، مع ذكر آثار الصحابة في القول الآخر.

فالسورة مكية في قول جمهور العلماء، بينما كان إسلام عبد الله بن سلام بالمدينة، وهذا يجعل من الضروري النظر في احتمال نزول الآية بعد الهجرة، أو أن تكون الروايات قد فسرت الآية بمن تحقق فيه وصف الشاهد دون أن يكون ذلك سبب نزولها الأصلي.

والقول بأن الشاهد هو عبد الله بن سلام له مستند نقلي عن عدد من الصحابة، ولذلك لا يصح إسقاطه لمجرد الإشكال الزمني، كما أن القول بأن الشاهد هو موسى عليه السلام له وجه سياقي معتبر.

والذي ينبغي التوقف عنده أن تعيين الشاهد لا يتوقف عليه أصل الحجة في الآية؛ فإنها تقرر أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ له شاهد من أهل الكتاب، سواء أكان المراد شهادة كتاب سابق، أم شهادة عالم به آمن وصدّق.

أما من جهة الترجيح، فإن حمل الشاهد على رجل من بني إسرائيل يوافق ظاهر لفظ ﴿شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وتدعمه آثار السلف في عبد الله بن سلام .وحمل الشهادة على موسى عليه السلام باعتبار التوراة يظل وجهًا تفسيريًّا مرويًّا، لا ينبغي إلغاؤه، لكنه يحتاج إلى تقدير في تركيب الآية، إذ تكون الشهادة شهادة موسى على مثل القرآن، لا شهادة شخص معاصر على الكتاب المنزل.

والأقرب في تفسير مجموع الآية إبقاء احتمال الشاهد الإسرائيلي الذي آمن، مع بيان أن تعيينه بعبد الله بن سلام لا يقتضي الجزم بأن الآية نزلت في المدينة، ولا يقتضي كذلك رد جميع الآثار الواردة في ذلك[1].

وقول الله تعالى: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ هذا هو موضع المقابلة في الآية؛ فالشاهد آمن، والمخاطبون استكبروا.

والفاء في ﴿فَآمَنَ﴾ تفيد ترتب الإيمان على الشهادة؛ إذ لما عرف الشاهد الحق من خلال ما عنده من العلم، استجاب له ولم يمنعه ما كان عليه من دين سابق من قبول الحق الذي ظهر له.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فيكشف أن موقف المكذبين لم يكن مجرد عدم العلم، وإنما كان معه استعلاء وامتناع عن قبول الحق.

---

١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية العاشرة، في اختلاف المفسرين في تعيين الشاهد.

والاستكبار أخص من مطلق الكفر من جهة ما يتضمنه من التعاظم والامتناع عن الانقياد، فقد يعرف المرء وجه الحق، ثم يمنعه من اتباعه ما في نفسه من كبر أو عصبية أو تعلق بمكانته.

وهنا تتجلى دقة المقابلة :رجل من بني إسرائيل، له علم بكتاب سابق، يقبل الشهادة ويؤمن؛ وقوم يسمعون القرآن بلغتهم، ويعرفون صدق الرسول ﷺ وأمانته، ثم يستكبرون عن اتباعه. فليست العبرة إذن بمجرد الانتساب إلى علم أو كتاب، بل بحقيقة الاستجابة لما ظهر من الحق.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي لا يوفق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والاستكبار إلى الهداية التي يطلبونها مع إصرارهم على الظلم.

والمراد هنا نفي التوفيق الخاص الذي يفضي إلى قبول الحق، وليس المراد أن الله منعهم من أصل البيان أو أقام عليهم الحجة ثم عاقبهم على ما لم يبين لهم؛ فإن الآيات نفسها قد أثبتت وصول البيان ووضوح الدلالة.

وفي هذا رد على توهم أن الاستكبار لا أثر له في مصير الإنسان؛ بل إن الإصرار على الظلم والامتناع عن الانقياد سبب للحرمان من التوفيق، جزاءً على ما اختاره العبد من الإعراض.

خامسًا :الاستكبار عن الحق واحتقار المؤمنين

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه نموذج الشاهد الذي آمن بالحق، انتقل إلى موقف آخر من مواقف المكذبين، وهو استدلالهم بمكانة المؤمنين الاجتماعية على بطلان الإيمان.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدل على أن الخطاب هنا يصور مواجهة بين الفريقين، لا مجرد موقف داخلي من الإيمان.

وقد كان من مقالات المستكبرين أنهم نظروا إلى السابقين إلى الإسلام من الضعفاء والفقراء، فاستبعدوا أن يكون الخير في طريق سبقهم إليه هؤلاء الذين لا يملكون في أعرافهم الجاهلية ما يرفع منزلتهم.

وقولهم :﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ مبني على قياس فاسد، إذ جعلوا منزلة السابقين في الدنيا معيارًا لمعرفة الحق، مع أن الحق لا يعرف بكثرة الأتباع ولا بجاههم، وإنما يعرف بدليله.

و "لو" هنا شرطية امتناعية، وقد جعلوا امتناعهم عن السبق إلى الإيمان دليلًا على انتفاء الخير فيه، كأنهم يقولون :لو كان الإسلام خيرًا لكان أصحاب المكانة والسبق في المجتمع أول من عرفه، ولما سبقهم إليه من يحتقرونهم.

وفي هذا قلب لمعيار الفضل، فبدل أن يزنوا الأقوال بالحق، صاروا يزنون الحق بمكانة القائلين.

وهذه الآية متصلة بما قبلها، فقد ذكر الله الشاهد الذي آمن واستكبر غيره، ثم ذكر فئة أخرى استكبرت عن اتباع المؤمنين، وجعلت سبق الضعفاء إلى الإيمان حجة على بطلانه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

أي لما لم يهتدوا بهذا القرآن، ولم يقبلوا دلالته، سيقولون إنه كذب قديم موروث، أو كلام مختلق سبق أن عرفه الناس.

والواو في ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا﴾ تفيد الانتقال إلى بيان ما آل إليه موقفهم من القرآن، و"إذ" هنا تحتمل معنى التعليل أو الظرفية بحسب توجيه الكلام، والمعنى أن عدم اهتدائهم به أفضى بهم إلى وصفه بالإفك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ يفيد توقع استمرار هذا المسلك منهم، فكلما عجزوا عن قبول الحق أو دفع حجته، انتقلوا إلى اتهامه.

و"الإفك" هو الكذب المصروف عن وجهه، ومنه الإفك لأنه يقلب الحقيقة ويصرفها عن وجهها.

ووصفهم له بأنه ﴿قَدِيمٌ﴾ يراد به أنه من جنس ما تناقلته الأمم السابقة، وأنه حكايات موروثة أو أساطير قديمة .فهم لا يثبتون مصدرًا صحيحًا لهذا الاتهام، وإنما يلجؤون إلى وصف عام يصرف الناس عن الاستماع.

ويحتمل النص بـ"قديم" أن يكون في قولهم تهكم بمضمون القرآن، كأنهم يجعلونه من أخبار الأولين التي لا تصلح هداية للناس، وهو في الحقيقة كتاب مصدق للكتب المنزلة قبلَه.

وهكذا نتتابع صور الإعراض :فمنهم من يقول سحر، ومنهم من يقول افتراء، ومنهم من يحتقر المؤمنين، ومنهم من يصف القرآن بالإفك القديم .وهي أقوال مختلفة في ظاهرها، لكنها تتفق في غايتها، وهي دفع الحق دون إقامة برهان على بطلانه.

سادسًا :شهادة التوراة للقرآن ووظيفة الإنذار والبشارة

قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

بعد أن حكى الله قول المكذبين في القرآن، وصفه بما يناقض دعواهم؛ فبيّن أنه ليس إفكًا قديمًا، وإنما هو كتاب من عند الله يصدق ما سبقه من الوحي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل القرآن أنزل الله كتاب موسى، وهو التوراة، هداية لبني إسرائيل.

والتقديم في ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ له أثر في المعنى؛ إذ يلفت النظر إلى سبق التوراة للقرآن، وأن الرسالة المحمدية ليست منفصلة عن تاريخ الوحي، بل هي امتداد له في أصل التوحيد والهداية.

ثم وصف كتاب موسى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

والإمام هو ما يؤتم به ويقتدى، ومنه الإمام في الصلاة لأنه متبوع، ويطلق على ما يكون أصلًا يهتدى به.

فالتوراة إمام لبني إسرائيل، يهتدون بها في أحكامهم ومعاشهم، وهي رحمة لهم؛ لأنها تخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية.

ونصب ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ يحتمل أن يكون على الحال من كتاب موسى، أي أنزلناه حال كونه إمامًا ورحمة، ويحتمل أن يكون على تقدير جعلناه إمامًا ورحمة، والمعنى في الوجهين متقارب.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾.

الإشارة إلى القرآن، وجاء اسم الإشارة للدلالة على الكتاب الحاضر الذي يتلوه الرسول ﷺ على الناس، ويقيم به الحجة عليهم.

والمصدق هو الذي يوافق ما سبقه من الكتب المنزلة في أصول الدين وأخبار الأنبياء وما جاء به الوحي من الحق، ويشهد لصدقها من حيث الأصل، لا أنه يقر كل ما نسب إليها من تحريف أو تبديل.

فالتصديق هنا ليس مجرد تكرار لما في التوراة، وإنما هو إثبات لأصل الوحي السابق، وتصديق لما بقي من الحق الذي أنزله الله.

وفي هذا رد على دعوى الإفك القديم؛ فالقرآن لا يأتي بكلام منفصل عن تاريخ النبوة، وإنما يأتي مصدقًا لما سبقه من الوحي، ومهيمنًا عليه بما أنزله الله من الحق.

وقول الله تعالى: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾

في إعراب هذه الجملة توجيهات، منها أن تكون متعلقة بوصف الكتاب، أي أن هذا الكتاب مصدق بلسان عربي، ومنها أن يكون المعنى أنه مصدق لما بين يديه حال كونه عربي اللسان.

والمراد أنه منزل بلغة العرب، وهي اللغة التي خوطب بها النبي ﷺ وقومه، ليكون البيان واضحًا لهم، وتقوم عليهم الحجة بلسانهم.

وليس في وصف القرآن بأنه عربي ما يقصر هدايته على العرب؛ فالعربية وصف للسان التنزيل، أما الرسالة فموجهة إلى الناس كافة.

وفي اختيار هذا الوصف بعد ذكر كتاب موسى دلالة على اجتماع وحدة المصدر مع اختلاف الألسنة؛ فالتوراة نزلت بلغة قومها، والقرآن نزل بالعربية، والحق الذي جاء به الأنبياء واحد في أصوله.

وقول الله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ اللام للتعليل، أي أنزل هذا الكتاب لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، ويحذرهم عاقبة ما هم عليه من الضلال.

والإنذار هنا ليس مجرد إخبار بالعقوبة، بل هو تحذير يحمل المخاطب على ترك ما يفضي إليها، ويدعوه إلى الرجوع قبل فوات الأوان.

وخص الذين ظلموا بالإنذار لأنهم أهل الحاجة إليه، ولأن ظلمهم هو الذي جعلهم في مواجهة هذا الوعيد.

ثم قال: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾. أي أن هذا الكتاب بشارة للذين أحسنوا الإيمان والعمل، فاستقاموا على أمر الله، وأخلصوا له العبادة، وأحسنوا إلى خلقه.

وجمع الله في وصف وظيفة القرآن بين الإنذار والبشارة؛ لأن النفوس تتفاوت في أحوالها، فمنها من لا يردعها إلا التخويف من العاقبة، ومنها من يقبل الحق طلبًا لرضوان الله ورجاء ثوابه.

وفي ذلك توازن الخطاب القرآني؛ فهو لا يبني علاقة الإنسان بالله على الخوف وحده، ولا على الرجاء وحده، بل يجمع بين التحذير من العذاب والبشارة بالرحمة والثواب.

كما أن الانتقال من ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ يرسم مقابلة بين فريقين :فريق أعرض عن الوحي واستكبر عن الحق، وفريق استجاب له وأحسن في عمله .وهذه المقابلة تمهد لما سيأتي في السورة من تفصيل أحوال المؤمنين والكافرين، وبيان ما أعد الله لكل فريق.

وبهذا ينتهي المقطع وقد انتظم في حجة واحدة :القرآن ليس سحرًا ولا افتراء، والرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل، ولا يتبع إلا الوحي، والكتاب يشهد له ما سبقه من الوحي، وتقوم به الحجة على المكذبين، ويكون بشارة للمحسنين.

تحرير المسائل التفسيرية والعقدية في المقطع

المسألة الأولى :هل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ينافي علم النبي ﷺ بمآله؟

لا ينافي ذلك ما ثبت من إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بما أطلعه عليه من المغفرة والفتح والفضل، ولا ما ثبت في السنة من البشارة له بالجنة؛ لأن الآية تتحدث عن علمه بما لم يوح إليه به، ولا تنفي أن يعلمه الله بعد ذلك.

والجمع بين النصوص واجب، ولا يصح جعل الآية معارضة لما ثبت في الكتاب والسنة من إخبار النبي ﷺ ببعض المغيبات.

والأقرب أن المراد بيان افتقار الرسول إلى الوحي، وأنه لا يستقل بمعرفة ما سيقع له ولغيره، وأن علمه تابع لما يعلمه الله إياه.

المسألة الثانية :هل المراد بالشاهد عبد الله بن سلام قطعًا؟

وردت في ذلك آثار عن الصحابة والتابعين، وذكر الطبري القولين، ورجح من جهة ظاهر السياق قول مسروق في أن المراد شهادة موسى عليه السلام، ثم أورد آثار القول بعبد الله بن سلام.

ولا يصح إغفال أحد الوجهين؛ فالأول له قوة من جهة اتصال السياق بمشركي مكة، والثاني له مستند من الآثار الواردة في تفسير الصحابة.

والذي نختاره في تحرير المسألة عدم الجزم بأن الآية نزلت بسبب إسلام عبد الله بن سلام، مع اعتبار تفسيرها به قولًا قويًّا منقولًا عن السلف، وعدم إلغاء احتمال الشهادة بالتوراة وموسى عليه السلام.

المسألة الثالثة :ما العلاقة بين الاستكبار والحرمان من الهداية؟

تقرر الآية أن الاستكبار والظلم من أسباب الحرمان من التوفيق، وأن العبد قد تقوم عليه الحجة ثم يحول بينه وبين قبولها ما في نفسه من كبر وعصبية.

ولا يعني ذلك أن الله يظلم العباد بمنعهم من الهداية ابتداءً، بل إن الآية تربط الحرمان بالظلم، وتبين أن الإصرار على الإعراض بعد قيام الحجة من أعظم أسبابه.

المسألة الرابعة :هل كثرة الأتباع أو مكانتهم دليل على صحة الاعتقاد؟

تنقض الآية هذا المعيار من أصله؛ إذ حكى الله عن المكذبين قولهم :﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وهو استدلال يجعل منزلة الناس الاجتماعية ميزانًا للحقيقة.

والقرآن يقرر أن الحق لا يعرف بمكانة أصحابه، وإنما يعرف بما قام عليه من البرهان .وقد يكون السابق إلى الحق من ضعفاء الناس في أعراف المجتمع، وهو عند الله أرفع منزلة من المتكبرين ذوي الجاه.

الصلة بين المقطع والمقطع التالي

ينتهي هذا المقطع بإظهار القرآن كتابًا مصدقًا لما سبقه، منزلًا بلسان عربي، يجمع بين الإنذار والبشارة.

وبعد أن عرضت السورة حقيقة الوحي وموقف المكذبين منه، تنتقل إلى بيان آثار الاستجابة له في حياة الإنسان، فتذكر أهل الاستقامة، ثم تعرض نموذج الإنسان البار بوالديه الذي يسأل الله التوفيق للشكر والعمل الصالح، وتقابله بنموذج الابن الجاحد الذي يرفض الإيمان بالبعث.

وهذا انتقال من الحجة النظرية إلى آثارها في النفس والأسرة، ومن بيان موقف الجماعات من الوحي إلى تصوير موقف الإنسان في حياته الخاصة.

المقطع الثالث :الإيمان والاستقامة وبر الوالدين ومآل الفريقين

الآيات :الثالثة عشرة إلى العشرين.

نص آيات المقطع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

تفسير الآيات

أولًا :حقيقة الاستقامة وثمرة الإيمان

يقول تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

لما ختم سبحانه المقطع السابق ببيان أن القرآن بشارة للمحسنين، وأنه ينذر الذين ظلموا، بيّن هنا من هم المحسنون الذين استحقوا هذه البشارة، وما الصفة التي تميزهم عن أهل الإعراض والاستكبار.

فجاء الجواب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

وهذه الجملة ليست مجرد وصف لأناس نطقوا بكلمة التوحيد، وإنما هي بيان لحقيقة الإيمان حين يتحول من إقرار باللسان إلى التزام مستمر في الاعتقاد والعمل.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يتضمن إقرارهم بأن الله هو ربهم، خالقهم ومالكهم ومدبر أمرهم، وأنه المستحق وحده للعبادة والطاعة .وإضافة الرب إلى ضمير الجماعة في ﴿رَبُّنَا﴾ تتضمن معنى الاختصاص والالتجاء والانقياد؛ فهم لا يقرون بوجود الله فحسب، بل يقرون بربوبيته ويعلنون خضوعهم له.

ولم يقل :إن الذين عرفوا الله، أو صدقوا بوجوده، بل قال :﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ لأن المقصود إظهار الإيمان الذي يعبر عنه الإنسان بإقرار جامع لمعنى التوحيد.

ثم جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، وهو موضع الثقل في الآية؛ إذ لم يجعل مجرد القول نهاية الأمر، بل عطف عليه الاستقامة.

و"ثم" تفيد التراخي الرتبي هنا، أي أن الاستقامة تأتي بعد الإقرار لتظهر صدقه وتحققه في حياة صاحبه، وليس المراد بالضرورة وجود مدة زمنية فاصلة بين القول والاستقامة.

والاستقامة في أصل اللغة طلب القيام على وجه الاعتدال والثبات، وضدها الميل والانحراف .يقال :استقام الأمر إذا اعتدل وثبت ولم ينحرف.

ومعنى الاستقامة في الآية :لزوم طريق التوحيد والطاعة، والثبات على مقتضى الإيمان، وعدم الرجوع إلى الشرك أو الانحراف عن أمر الله.

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسيرها؛ فمنهم من فسرها بالثبات على التوحيد، ومنهم من قال :استقاموا على طاعة الله، ومنهم من حملها على أداء الفرائض واجتناب المحارم.

وهذه الأقوال من اختلاف التنوع، لا التضاد؛ لأن الاستقامة على التوحيد لا تنفصل عن مقتضياته العملية، كما أن الاستقامة في العمل لا تستقيم إذا فسدت أصول الاعتقاد.

وقد جاء في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه أنه قال :قلت :يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك .قال :"قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ"[1] .

وهذا الحديث يفسر الآية تفسيرًا نبويًّا بالغ الدلالة؛ إذ جمع بين أصل الإيمان والاستقامة عليه، فجعل الثانية مقتضى الأولى، لا أمرًا زائدًا منفصلًا عنها.

---

١ مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، في قوله ﷺ: "قل آمنت بالله ثم استقم".

ومن هنا يظهر أن الاستقامة ليست مجرد المحافظة على صورة ظاهرة من الأعمال، ولا مجرد استحضار معنى الإيمان في القلب دون أثر في السلوك، وإنما هي ثبات العبد على ما يرضاه الله في اعتقاده وقوله وعمله بحسب استطاعته.

ولا يلزم من ذلك أن المستقيم لا يقع في ذنب قط؛ فالعبد قد يزل ثم يتوب، وإنما المذموم أن يتخذ الانحراف طريقًا مستقرًّا، أو يصر على مخالفة أمر الله، أو ينقض أصل التوحيد.

ثم قال سبحانه :﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهذه ثمرة الاستقامة وجزاؤها، وقد جمع الله فيها بين نفي أمرين يحيطان بالنفس الإنسانية : الخوف والحزن.

فالخوف يتعلق بما يستقبل الإنسان من المكروه، والحزن يتعلق بما مضى وفاته من محبوب أو وقع فيه من مكروه.

فالمعنى :لا يخافون مما يستقبلهم من أهوال القيامة وما أمامهم من عواقب، ولا يحزنون على ما خلفوه وراءهم من الدنيا وأهلها وأموالها، ولا على ما فاتهم من حظوظها؛ لأنهم صاروا إلى دار الأمن والرضوان.

وقد جاء نفي الخوف والحزن في القرآن في مواضع متعددة، منها قول الله تعالى في سورة سورة البقرة:

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1].

فالسياق هناك يربط الأمن باتباع الهدى، وهنا يربطه بالقول والاستقامة؛ والجامع بين الموضعين أن الأمن الأخروي ثمرة اتباع هداية الله والثبات عليها.

وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن مناسب؛ لأن مشهد القيامة يتصل أولًا بما يستقبل الإنسان من الأهوال، ثم بما يتعلق بما مضى من حياته وما فارقه فيها.

ولا يلزم من نفي الخوف والحزن عن المؤمنين أنهم لا يشعرون في الدنيا بخوف أو حزن؛ فالآية تتحدث عن مآلهم وما يلقونه من الأمن في دار الجزاء، ولا تنفي ما يعرض لهم في الحياة الدنيا من أحوال بشرية.

---

[1] سورة البقرة: ٣٨.

ثم أكد سبحانه هذه البشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

واسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ يعود إلى الذين جمعوا بين الإقرار والاستقامة، وفيه إظهار لعلو منزلتهم وامتيازهم بما وصفوا به.

والنص بـ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يفيد ملازمتهم لها واستقرارهم فيها، لا مجرد دخول عارض يعقبه خروج.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من أصحاب الجنة، أي مقيمين فيها إقامة دائمة لا تنقطع.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيبين أن هذا الجزاء مرتبط بأعمالهم الصالحة التي قامت على الإيمان والاستقامة.

والباء في ﴿بِمَا﴾ للسببية، و "ما" موصولة، أي بسبب ما كانوا يعملون من الطاعات والإحسان.

ولا تعارض بين هذا وبين الأحاديث الصحيحة التي تقرر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله؛ فإن العمل سبب شرعي للجزاء، أما التوفيق إليه وقبوله ومضاعفة ثوابه ودخول الجنة به فكل ذلك من فضل الله ورحمته.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :"لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ" .قالوا :ولا أنت يا رسول الله؟ قال :"وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ".

فلا يجوز أن يفهم من الآية استقلال العمل بإدخال صاحبه الجنة، كما لا يجوز إلغاء أثر العمل الذي نص عليه القرآن.

وهذا التوازن من أصول الاعتقاد :العمل واجب وسبب للجزاء، والقبول والتوفيق والرحمة لله وحده.

وقد جاء هذا المقطع جوابًا عن البشارة التي انتهى بها المقطع السابق، ثم انتقلت السورة من بيان حقيقة الإحسان في التوحيد والاستقامة إلى مظهر آخر من مظاهر الإحسان، وهو الإحسان إلى الوالدين، لتبين أن الإيمان الذي يصلح علاقة العبد بربه لا ينفصل عن صلاح معاملته للخلق.

ثانيًا :الوصية بالوالدين واستحضار حق الأم

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

بعد أن ذكر الله أهل الاستقامة، وما تحقق لهم من الأمن والجزاء، انتقل إلى الوصية بالإحسان إلى الوالدين .وهذا الانتقال ليس انقطاعًا عن السياق، بل هو انتقال من بيان صلاح علاقة الإنسان بربه إلى بيان أثر الهداية في علاقته بأقرب الناس إليه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ يتضمن أمرًا مؤكدًا بالعناية بحق الوالدين، والقيام بما يقتضيه ذلك من البر والرفق والطاعة في المعروف.

والوصية في أصل اللغة عهد مؤكد يوصي به الموصي من بعده، واستعمالها هنا يدل على عظم حق الوالدين، وأن الإحسان إليهما ليس فضيلة اختيارية محضة، بل هو أمر إلهي مؤكد.

وقد قرئ لفظ ﴿إِحْسَانًا﴾ في القراءات المتواترة بوجهين:

- قراءة ﴿إِحْسَانًا﴾، وهي قراءة حفص عن عاصم، ومعناها أن الله وصى الإنسان بأن يحسن إلى والديه.
- وقراءة ﴿حُسْنًا﴾، وهي قراءة متواترة، على معنى المعاملة الحسنة والصحبة الجميلة[1].

ولم يقل سبحانه :وأوصينا الإنسان بطاعة والديه مطلقًا، بل اختار الإحسان؛ لأن البر أوسع من مجرد الطاعة، فهو يشمل القول اللين، والرحمة، وخفض الجناح، والنفقة، والرعاية، والصحبة بالمعروف.

ولا يدخل في ذلك طاعة الوالدين في معصية الله؛ فقد قال النبي ﷺ :"إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"، متفق عليه من حديث علي رضي الله عنه.

ثم خص سبحانه الأم بالذكر بعد ذكر الوالدين، فقال:﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

والكُره بضم الكاف وسكون الراء مصدر يدل على المشقة، وقيل هو المشقة مع ما يصاحبها من ثقل وألم، والمعنى في الموضعين متقارب.

وإفراد الأم بالذكر هنا ليس إخراجًا للأب من حق البر، بل هو بيان لخصوصية ما تحملته الأم من مشاق لا يشاركها الأب فيها على الوجه نفسه.

---

١ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة عشرة، في بيان اختلاف القراء في ﴿حُسنًا﴾ و﴿إحسانًا﴾. وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الموضع نفسه.

فقد حملته في بطنها، وتحملت ثقل الحمل وتغير أحوال الجسد، ثم عانت مشقة الوضع وآلام الولادة.

والنص بالفعلين الماضيين ﴿حَمَلَتْهُ﴾ و﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ يستحضر للإنسان مرحلتين عظيمتين من مراحل وجوده، كان فيهما عاجزًا عن إدراك ما يبذل لأجله، ثم أصبح بعد اكتمال قوته قادرًا على الاعتراف بالفضل ورد الجميل.

وهذا من دقة البيان القرآني، فالآية لا تكتفي بإصدار أمر مجرد بالإحسان، بل تستحضر أسباب استحقاق الوالدين للبر، وتعيد الإنسان إلى أصل ضعفه وحاجته.

ثم قال سبحانه:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. الفصال هو فطام الطفل عن الرضاع، وسمي بذلك لانفصاله عن ثدي أمه.

والضمير في ﴿حَمْلُهُ﴾ و﴿فِصَالُهُ﴾ يعود إلى الإنسان، أي أن مجموع مدة الحمل والرضاع إلى الفطام ثلاثون شهرًا.

وهذه الآية أصل مهم في مسائل الحمل والرضاع، وقد استنبط منها الفقهاء أقل مدة الحمل، بضمها إلى قول الله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[1].

وقوله في سورة سورة البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[2].

فإذا كانت مدة الرضاع التامة أربعة وعشرين شهرًا، وكان مجموع الحمل والفصال ثلاثين شهرًا، كان أقل الحمل ستة أشهر.

وهذا الاستنباط من أشهر المسائل الفقهية المستفادة من جمع الآيات، وقد نُقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الاستدلال به في قصة المرأة التي ولدت لستة أشهر، وذكر المفسرون ذلك في تفسير الآية.

والدلالة الحسابية هنا واضحة :ثلاثون شهرًا مجموع الحمل والفصال، وأربعة وعشرون شهرًا مدة الرضاع التام، فيبقى ستة أشهر أقل مدة الحمل.

---

١ سورة لقمان: ١٤.

٢ سورة البقرة: ٢٣٣.

لكن ينبغي التنبه إلى أن الآية لا تقول إن كل حمل مدته ثلاثون شهرًا، بل تتحدث عن مجموع الحمل والفصال في الصورة التي يصدق عليها هذا التقدير، أما مدة الحمل فتختلف، ولذلك جاء الاستنباط بجمع النصوص لا بأخذ الآية منفردة.

وخصوصية ذكر الأم في الآية

إن تخصيص الأم بذكر الحمل والوضع لا يعني أن حق الأب قليل أو ساقط، بل إن حقهما ثابت مع تميز الأم بمزيد من المشقة التي تحملتها.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال :يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال :"أُمُّكَ" .قال :ثم من؟ قال :"أُمُّكَ" .قال : ثم من؟ قال :"أُمُّكَ" .قال :ثم من؟ قال :"أَبُوكَ".

فتكرار الأم ثلاثًا ثم ذكر الأب يدل على تقديم حقها في حسن الصحبة لما اختصت به من الحمل والولادة والرضاع والرعاية، ولا يدل على إهدار حق الأب.

وهنا تظهر مناسبة الآية لما قبلها؛ فالاستقامة ليست مجرد إقرار بالتوحيد، بل لها أثر في المعاملة، ومن أظهر ميادين ظهورها بر الوالدين، والاعتراف بفضلهما، وعدم مقابلة الإحسان بالجحود.

ثالثًا :بلوغ الأربعين واكتمال النضج ودعاء العبد الصالح

قال الله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

انتقل السياق من ذكر مشقة الوالدين في إنشاء الإنسان ورعايته إلى تصوير الإنسان حين يكتمل نضجه، ويبلغ مرحلة يدرك فيها عظم النعمة، فيتوجه إلى الله بالشكر والدعاء، ويسأل صلاح نفسه وذريته.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يفيد بلوغ غاية القوة والنضج.

والأشد جمع لا مفرد له من لفظه على هذا الاستعمال، ويطلق على بلوغ الإنسان مرحلة استكمال قوته البدنية والعقلية.

وقد اختلف أهل التفسير في تحديد سن الأشد، فقيل :ثماني عشرة سنة، وقيل :ثلاث وثلاثون، وقيل غير ذلك، وقيل إن المراد بلوغ كمال القوة من غير تحديد بسنة واحدة.
والأقرب أن لفظ الأشد في أصله يدل على اكتمال القوة، وأن تحديده بسن معينة من قبيل التفسير التقريبي الذي تختلف فيه أحوال الناس، لا أنه حد شرعي ثابت لكل إنسان.
ثم قال سبحانه :﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.
وخص الأربعين بالذكر بعد بلوغ الأشد، لما لها من دلالة على استقرار النضج وكمال التجربة في الغالب، وتمام مرحلة من مراحل العمر.
وقد ذهب الطبري في توجيه الآية إلى أن عطف الأربعين على بلوغ الأشد يشعر بتقارب المرحلتين، وناقش الأقوال التي تجعل الأشد بلوغ الحلم، ورأى أن تمام القوة أقرب إلى السياق[1] .
ولا يلزم من تخصيص الأربعين أن كل إنسان يبلغ فيها غاية عقله أو صلاحه، أو أن من بلغها وجب أن يكون على حال واحدة؛ فالآية تصف نموذجًا من الإنسان الذي يكتمل نضجه ثم يتوجه إلى الله بالشكر والتوبة.
كما لا يثبت من الآية وحدها أن الأربعين سن مخصوصة لنزول الحكمة أو وجوب التوبة أو بدء المحاسبة؛ فهذه معانٍ تحتاج إلى دليل مستقل.
وقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ الإيزاع في أصل اللغة هو الإلهام والحمل على الشيء والتوفيق له، ويقال :أوزع الله فلانًا كذا، أي ألهمه إياه وأعانه عليه.
ومعنى الدعاء :يا رب ألهمني ووفقني وأعنّي على أن أؤدي شكر نعمتك.
ولم يقل :رب اجعلني شاكرًا فحسب، بل قال :﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾، لأن الشكر نفسه نعمة تحتاج إلى توفيق، فلا يستقل العبد بإدراكها ولا بالقيام بحقها دون عون الله.
وهذا من دقائق النص القرآني؛ إذ جعل الإنسان الذي بلغ أشده وأربعين سنة، وامتلك من القوة والتجربة ما امتلك، لا يرى نفسه مستغنيًا عن عون ربه، بل يسأله أن يعينه على أداء حق النعمة.

---

١ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة عشرة، في معنى الأشد وتحديد بلوغه، وبيان وجه عطف الأربعين عليه.

ثم قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ بدأ بشكر نعمة الله على نفسه، ثم عطف والديه، لأن نعمة وجوده وتربيته وقيامهما عليه من أعظم النعم التي يراها الإنسان حين يتأمل حياته.

وقد يشمل شكر نعمة الله على الوالدين ما أنعم به عليهما من الإيمان والهداية والصحة والرزق، وما يسر لهما من أسباب القيام بشأن ولدهما.

والنص بـ﴿نِعْمَتَكَ﴾ مفرد مضاف إلى ضمير المخاطب، فيفيد جنس النعمة وما يتشعب عنه من ألوان العطاء.

وفي الدعاء اعتراف بأن ما وصل إليه الإنسان من قوة ونضج ليس ثمرة جهده وحده، وإنما هو فضل الله عليه وعلى والديه.

ثم قال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ انتقل من شكر النعمة بالقول والاعتراف إلى شكرها بالعمل.

والعمل الصالح هو العمل الموافق لأمر الله، الذي يقوم على الإخلاص والمتابعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرْضَاهُ﴾ يبين أن العبرة ليست بكثرة العمل في نظر صاحبه، وإنما بكونه مرضيًّا عند الله.

وهذا قيد عظيم؛ فقد يعمل الإنسان أعمالًا كثيرة، ويعجب بها، ولكنها لا تكون على الوجه الذي يرضاه الله.

وفيه أيضًا تربية على ألا يكتفي العبد بإصلاح ماضيه، بل يسأل ربه أن يوفقه في مستقبله.

ثم قال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾. بعد الدعاء بصلاح النفس انتقل إلى الدعاء بصلاح الذرية، وفي ذلك اتساع لنظر الإنسان الصالح؛ فهو لا يقصر طلب الهداية على نفسه، بل يسأل الله أن يمتد أثر الإيمان إلى ذريته.

ولم يقل :أصلح ذريتي فقط، بل قال :﴿أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، وهو تعبير يتضمن طلب إصلاح أحوالهم وجعل صلاحهم ممتدًّا في حياته وبعد وفاته، ويحتمل أن يكون المعنى أصلح لي شؤون ذريتي، وأصلحهم حتى يكونوا قرة عين لي.

والذرية تشمل الأولاد وما تفرع منهم من نسل.

وفي تخصيص الذرية بالذكر بعد الوالدين معنى بديع؛ فقد ذكر الإنسان حق الجيل الذي سبقه عليه، ثم دعا بصلاح الجيل الذي يأتي بعده، فكأن الآية ترسم امتداد المسؤولية بين الأجيال : إحسان إلى الوالدين، وشكر لله على النعمة، وعمل صالح في الحاضر، ودعاء بصلاح المستقبل.
وهذا لا يعني أن صلاح الذرية يحصل بمجرد دعاء الوالد دون أخذ بالأسباب، بل الدعاء من أعظم الأسباب، ويضم إليه التربية والتعليم والقدوة والرعاية.
ثم ختم دعاءه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ التوبة هي الرجوع إلى الله من المعصية إلى الطاعة، ومن الإعراض إلى الإنابة.
وإعلانه التوبة في هذا الموضع يدل على أن بلوغ النضج لا يحمل صاحبه على العجب بنفسه، بل يزيده شعورًا بالتقصير والحاجة إلى المغفرة.
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ إعلان للانقياد لله، والتسليم لأمره وحكمه.
وقد كرر ضمير المتكلم في ﴿إِنِّي﴾ مرتين، لما في المقامين من توكيد :توكيد الرجوع إلى الله، وتوكيد الانتماء إلى أهل الإسلام والانقياد.
والدعاء كله ينتظم في ثلاثة مطالب متكاملة:

- ✓ أن يوفق الله العبد لشكر النعمة.
- ✓ أن يوفقه للعمل الصالح المرضي.
- ✓ أن يصلح له ذريته ويمتد الخير في عقبه.

ثم يختم بإعلان التوبة والإسلام.
وهذه ليست مجرد كلمات تقال عند بلوغ سن الأربعين، بل هي نموذج قرآني للإنسان الذي يستحضر فضل الله، ويجمع بين صلاح نفسه وصلاح أسرته، ويرى أن ما بلغه من النضج لا يغنيه عن التوبة والافتقار إلى الله.

رابعًا :قبول العمل والتجاوز عن السيئات وجزاء الإحسان

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فإسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ يعود إلى الإنسان الذي اجتمعت فيه صفات الإيمان والشكر والعمل الصالح والتوبة والدعاء بصلاح الذرية، أو إلى من اتصف بهذه الصفات من المؤمنين عمومًا.

وفي هذا الانتقال من دعاء العبد إلى جواب الله عنه إظهار لثمرة الإخلاص والإنابة؛ فالعبد يسأل التوفيق والقبول، والله يبشر أهل الإحسان بقبول أعمالهم والتجاوز عن سيئاتهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يدل على أن الله يتفضل على عباده بقبول أعمالهم الصالحة، ولا يضيع شيئًا من إحسانهم.

والنص بـ ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يحتمل أن المراد به أحسن أعمالهم من حيث الإخلاص والصواب، ويحتمل أن المراد به قبول أعمالهم الصالحة على تفاوت درجاتها، فيتقبلها الله ويثيبهم عليها.

ولا ينبغي حمله على أن الله لا يقبل إلا العمل الذي يكون في أعلى مراتب الحسن، بل المقصود بيان كمال فضله في قبول الطاعة ومضاعفة ثوابها.

والنص بـ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ فيه معنى التفضل؛ لأن القبول من الله ليس حقًّا لازمًا على الله يفرضه العبد بعمله، وإنما هو فضل ورحمة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي نسترها ونعفو عنها، فلا نؤاخذهم بها إذا تابوا ورجعوا إلى الله، أو غفر الله لهم بمحض فضله.

والتجاوز أبلغ من مجرد ترك العقوبة؛ لأنه يشعر بالإعراض عن المؤاخذة والصفح عن الذنب.

وفي الجمع بين قبول الحسنات والتجاوز عن السيئات إظهار لرحمة الله الواسعة؛ فهو لا يقتصر على إثابة المحسن على طاعته، بل يتفضل عليه بمحو ما وقع منه من التقصير والزلل.

وهذا يوافق دعاء العبد في الآية السابقة :﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ فالتوبة رجوع من العبد، والقبول والتجاوز فضل من الرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي يدخلون في جملة أهل الجنة، ويكونون من سكانها الملازمين لها.

وهذا النص يؤكد أن قبول العمل والتجاوز عن السيئات ليسا مجرد مغفرة مؤقتة، بل هما طريق إلى الفوز بالدار الآخرة.

ثم ختم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي هذا الذي وعدهم الله به وعد حق لا يتخلف، وهو وعد صدق لا يدخله كذب ولا خلف.

وإضافة الوعد إلى الصدق توكيد لمضمونه، وإظهار لثباته؛ لأن الذي وعدهم هو الله سبحانه، ووعده لا يتخلف.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ دلالة على أن هذا الوعد سبق أن بلغهم على ألسنة الرسل، وأنهم كانوا ينتظرون تحققه بالإيمان والعمل.

وهنا يتصل المقطع بما سبق من ذكر البشارة للمحسنين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فالبشارة أصبحت الآن تفصيلًا :قبول للعمل، وتجاوز عن السيئات، ودخول في الجنة، ووعد صادق يتحقق.

خامسًا :نموذج الابن الجاحد وموقفه من الإيمان والبعث

قال الله تعالى:﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

بعد أن عرض الله صورة الإنسان الصالح الذي يشكر نعمة ربه، ويبر والديه، ويسأله صلاح ذريته، عرض صورة مقابلة لابن جاحد يسيء إلى والديه، ويرفض دعوتهما إلى الإيمان، وينكر البعث والجزاء.

وهذا التقابل مقصود في بناء المقطع؛ فالآية السابقة رسمت إنسانًا صالحًا يدعو لوالديه ويطلب صلاح ذريته، وهذه الآية تعرض إنسانًا يقابل إحسان والديه بالإساءة، ودعوتهما إلى الحق بالاستهزاء والتكذيب.

والواو في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ تفيد الانتقال إلى نموذج مقابل، و"الذي" اسم موصول يحتمل إرادة شخص معين وردت فيه آثار، ويحتمل إرادة جنس من اتصف بهذه الصفة.

والأقرب من جهة العبرة أن الآية تتناول كل من اتصف بهذا الوصف، وإن كان سبب النزول الخاص ـ إن ثبت ـ متعلقًا بشخص بعينه؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قول الله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ "أف" كلمة تقال عند التضجر والتبرم، وهي من ألفاظ التأفف التي تدل على استثقال المخاطب أو السخط من قوله.

وقد اختار الابن هذا اللفظ الدال على الضجر في مخاطبة والديه، بدل أن يناقشهما بالحجة أو يرد عليهما بأدب.

وتتكشف بذلك حقيقة موقفه؛ فهو لم يكتف بإنكار البعث، بل جمع إلى فساد الاعتقاد سوء الأدب مع الوالدين.

واللام في ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بمعنى التأفف، وفيها توجيه الإساءة إليهما مباشرة.

وقد جاء هذا اللفظ في سياق الوصية بالوالدين، ليقع التناقض بين النموذجين في أوضح صورة : الأول يدعو لوالديه، والثاني يتضجر منهما[1].

وقول الله تعالى: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أتخبراني أنني سأبعث من قبري وأخرج من الأرض بعد موتي؟

والاستفهام إنكاري استبعادي، يتضمن استهزاءه بما يخبرانه به من البعث.

والإخراج هنا هو البعث من القبور، لا مجرد الخروج من مكان إلى مكان؛ لأن السياق متصل بإنكار البعث والرد على وعد الله بالقيامة.

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾. أي مضت أمم كثيرة قبلي، وماتت أجيال متعاقبة، ولم أر أحدًا منهم يعود إلى الحياة بعد موته، فكيف تصدقان أنني سأخرج بعد الموت؟

وهذا من الاستدلال الفاسد بالمشاهدة المحدودة على إنكار ما أخبر الله به؛ فقد جعل عدم مشاهدته لعودة الموتى دليلًا على استحالة البعث.

والقرون جمع قرن، وهو الجيل من الناس الذين يجتمعون في عصر، وقد يطلق على مدة من الزمن.

وذكر القرون الماضية يصور طول التاريخ الإنساني في نظره، لكنه لا يقدم برهانًا على نفي القدرة الإلهية؛ فموت الأمم لا يدل على امتناع إحيائها، وإنما يدل على انتهاء آجالها في الدنيا.

وقد جاء في القرآن الرد على هذا المسلك بقول الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [2] .

---

١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الأحقاف، الآيات الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة، في الأقوال المتعلقة بسبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾.

٢ سورة يس: ٧٨-٧٩.

فالذي أنشأ الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد الموت، ولا تكون المشاهدة البشرية المحدودة حاكمة على قدرة الله.

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾ انتقل السياق من حكاية كلام الابن إلى تصوير حال والديه وهما في شدة الخوف عليه، يدعوان الله أن يهديه، ويحثانه على الإيمان.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يدل على شدة ما يعتريهما من الهم والحرص على نجاة ولدهما.

والاستغاثة هنا تتضمن طلب الغوث من الله، والدعاء بأن ينقذه من الضلال والعذاب، كما تتضمن في السياق استرحامهما له وحثه على الرجوع.

وقد ذكر المفسرون في معنى استغاثتهما بالله وجهين متقاربين :أنهما يدعوان الله له بالهداية، وأنهما يستغيثان به من شدة ما يريان من عناد ابنهما .ولا تعارض بين المعنيين، فقد يجتمع الدعاء له والشكوى إلى الله من حاله.

ثم حكى قولهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

"ويلك" كلمة زجر وتحذير، تستعمل عند إرادة التنبيه على عاقبة خطيرة، وليست مجرد سب أو دعاء بالهلاك في كل استعمالاتها.

والمعنى :ويحك، آمن بالله وبالبعث، ولا تعرض نفسك للهلاك؛ فإن ما وعد الله به من القيامة والجزاء حق لا ريب فيه.

وجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ تعليل للأمر بالإيمان، أي آمن لأن الله وعد بالبعث، ووعده لا يتخلف.

وهنا يظهر الفرق بين خطاب الوالدين وخطاب الابن :الوالدان يحتكمان إلى وعد الله ويقينهما بالآخرة، والابن يحتكم إلى ما اعتاده من الحس والمشاهدة، وينكر ما وراءهما.

وقول الله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي يقول إن ما يخبرانه به من البعث والجزاء ليس إلا أخبارًا قديمة وحكايات موروثة لا حقيقة لها.

والأساطير جمع أسطورة، وهي الأخبار والحكايات التي يتناقلها الناس، وقد يستعملها المكذبون في وصف ما يزعمون أنه من أخبار الأولين الباطلة.

وتقديم النفي في ﴿مَا هَـٰذَا إِلَّا﴾ يفيد القصر، أي لا يرى ما يخبرانه به إلا من جنس تلك الأساطير.

وهنا تتصل الآية بالمقطع السابق اتصالًا ظاهرًا؛ فقد وصف المكذبون القرآن بأنه ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، وهذا الابن يصف وعد البعث بأنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فتتكرر في السورة حجة المكذبين نفسها :رد الحق إلى مجرد موروث قديم، دون أن ينظروا في الدليل الذي يقوم عليه.

في سبب النزول وتعيين الابن المذكور

وردت آثار في تعيين هذا الابن بعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قبل إسلامه، وذكر بعض المفسرين ذلك في أسباب النزول، كما نقلوا أقوالًا أخرى في تعيينه.

لكن هذه الروايات لا تخلو من إشكال في الثبوت والدلالة، ولا يصح الجزم بأن الآية نزلت في شخص بعينه اعتمادًا على رواية لا تستوفي شروط القبول.

وقد نقل ابن كثير خبرًا في ذلك، وأشار إلى أن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وهو ما يمنع أن يحمل وصف الآية على أنه حكم نهائي لا يقبل التغير لمن أسلم وتاب.

كما أن الآية جاءت بلفظ الموصول ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾، وهو صالح لوصف شخص معين، وصالح كذلك لإرادة الجنس الذي تتكرر فيه هذه الصفة.

والذي نرجحه أن العبرة في التفسير بعموم الوصف الذي رسمته الآية، وأما تعيين الشخص وسبب النزول فلا نجزم به دون ثبوت رواية صحيحة صريحة.

وهذا أدق من تحويل الخلاف في سبب النزول إلى حقيقة تاريخية قطعية.

سادسًا :مآل الجاحدين وعموم الحكم في الأمم

قال اللهﷻ تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

اسم الإشارة ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ يعود إلى الذين اتصفوا بما تقدم من الكفر والاستكبار والتكذيب، ومنهم النموذج الذي ذكره الله في الآية السابقة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت عليهم حكم الله وقضاؤه بالعذاب، بعد قيام الحجة وظهور الحق والإصرار على الكفر.

والحق في أصل اللغة الثبوت والوجوب، ومنه حق الأمر إذا ثبت واستقر.

وليس المراد أن الله حكم عليهم بالعذاب دون سبب، وإنما حق عليهم القول بسبب ما اختاروه من الكفر والتكذيب والإعراض، كما دل السياق على ذلك.

ثم قال: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾.

أي إنهم داخلون في جملة الأمم التي سبقتهم في الكفر والتكذيب، من الجن والإنس، وقد جرى عليهم حكم الله في الجزاء.

وفي ذكر الجن والإنس بيان لعموم التكليف والجزاء؛ فالجن والإنس كلاهما مخاطب بالعبادة، وكلاهما مسؤول عن الإيمان والطاعة.

والنص بـ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يستحضر تاريخ الأمم السابقة التي كذبت الرسل، وكأن الآية ترد على قول الابن :﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾؛ فهو يستدل بمضي القرون على إنكار البعث، والقرآن يستدل بمضي الأمم على أن سنن التكذيب والعقاب قد تكررت في التاريخ.

وهذا من المقابلة الدقيقة بين كلام المكذبين وخطاب القرآن :ما اتخذه الجاحد دليلًا على الإنكار صار في السياق القرآني شاهدًا على تحقق سنن الله في المكذبين.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

أي خسروا أنفسهم وما كان يمكن أن يفوزوا به من الإيمان والرحمة والنجاة.

والخسران هنا ليس مجرد فوات منفعة دنيوية، بل هو خسارة المصير الأبدي؛ لأنهم أضاعوا أصل النجاة وهو الإيمان بالله واليوم الآخر.

وجاء الفعل الماضي ﴿كَانُوا﴾ للدلالة على ثبوت هذه الصفة فيهم واستقرارها، لا على مجرد وقوع عارض.

وهذا المقطع يبين أن العناد إذا استقر في النفس، وصار صاحبه يرد الحق مع ظهور دليله، فقد يفضي به إلى اللحاق بأمم المكذبين الذين سبقوه.

سابعًا :تفاوت الدرجات والجزاء بالعمل

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه حال المؤمنين المستقيمين، ثم عرض نموذج الجاحد، وبيّن عاقبة المكذبين، قرر قاعدة عامة في الجزاء، وهي أن الناس يتفاوتون بحسب أعمالهم، وأن الله يوفي كل فريق جزاءه بالعدل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ أي لكل فريق من أهل الإيمان والكفر مراتب ومنازل بحسب ما عملوا.

والدرجات في أصلها مراتب يصعد بعضها فوق بعض، وقد تستعمل في الخير والشر بحسب السياق.

وفي هذا الموضع قال جماعة من المفسرين إن المراد بالدرجات منازل الجزاء، في الجنة للمؤمنين، وفي النار للكافرين، وإن تفاوتها تابع لتفاوت الأعمال.

ولا يلزم من لفظ الدرجات أن يكون المراد العلو في الخير وحده؛ لأن السياق يتحدث عن الفريقين، وقد استعمل القرآن لفظ الدرجات في مراتب الجزاء على اختلافها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ يبين أن التفاوت ليس اعتباطيًّا، بل هو بحسب الأعمال التي اكتسبها كل إنسان.

ثم قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾. أي ليعطي كل واحد جزاء عمله وافيًا، فلا ينقص المحسن من ثوابه، ولا يحمل المسيء ما لم يفعله.

واللام في ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلقة بما تقدم من بيان تفاوت الدرجات، وفيها معنى التعليل والغاية، أي إن هذا التفاوت من مقتضى عدل الله في توفية كل إنسان جزاءه.

والتوفية هي الإعطاء التام من غير نقص.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حسناتهم شيء، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا يعاقبون بغير جرم، ولا يساوى بين من أحسن ومن أساء.

وهذا أصل قرآني متكرر في تقرير عدل الله، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الأنبياء :٤٧.

وفي هذا السياق تأتي الآية تمهيدًا للانتقال إلى مشهد العذاب؛ لأن بيان التفاوت في الدرجات يقتضي بيان ما يؤول إليه أهل الاستكبار من جزاء يناسب أعمالهم.

ثامنًا :عرض الكافرين على النار وتوبيخهم على الاغترار بالدنيا

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

بعد أن قرر سبحانه تفاوت الدرجات بحسب الأعمال، عرض مشهدًا من مشاهد الجزاء، وهو عرض الكافرين على النار وتوبيخهم على ما قدموا من الاغترار بمتاع الدنيا والاستكبار عن الحق.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يوقفون أمامها، ويشاهدونها، ويعاينون ما أعد لهم فيها.

والعرض هنا يدل على إحضارهم لمشهد العذاب وإظهار النار لهم، وفيه تصوير لهول الموقف؛ إذ يصبح العذاب الذي أنكروه حقيقة يشاهدونها، والوعد الذي كذبوا به حاضرًا أمام أعينهم.

ثم يأتي التوبيخ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.

هذا استفهام توبيخي تقريري، أي يقال لهم :لقد استنفدتم طيباتكم في الحياة الدنيا، واستمتعتم بها، ولم تجعلوا لآخرتكم نصيبًا من الإيمان والعمل الصالح.

والطيبات تشمل ما يتلذذ به الإنسان من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن وسائر وجوه النعيم الدنيوي.

لكن الآية لا تذم الطيبات في ذاتها، ولا تجعل الاستمتاع بالحلال سببًا للعذاب، فإن الله سبحانه أباح لعباده الطيبات، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1].

وإنما الذم متعلق بالكفر والاستكبار والفسق، وبالانغماس في متاع الدنيا حتى يصير شاغلًا عن الإيمان والواجبات، أو يكون المتاع نفسه محرمًا مكتسبًا من وجوه الظلم والعدوان.

---

١ الأعراف: ٣٢.

فليس كل من أكل طيبًا أو لبس حسنًا مذمومًا، وإنما المذموم من جعل الدنيا غايته، واستنفد فيها عمره وطاقته، وأعرض عن حق الله وحق عباده.

و"أذهبتم" فعل ماض، والهمزة للاستفهام التوبيخي، وفيه تصوير لاستهلاك النعم وتفويتها، كأن الطيبات قد ذهبت كلها ولم يبق منها إلا الحساب.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ يحدد المجال الذي استغرقوا فيه تلك النعم، ويقابله ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب.

ثم قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾الفاء تفيد ترتيب الجزاء على ما تقدم من الإعراض والاستكبار والفسق؛ و"الهون" الذل والهوان، والعذاب الموصوف به هو العذاب الذي يجمع الألم والإذلال، فيقابل ما كان عندهم من استعلاء في الأرض؛ فهم استكبروا في الدنيا، فجوزوا في الآخرة عذابًا يذلهم ويهينهم.

وهذا من المقابلة الجزائية الدقيقة في الآية :استعلاء في الدنيا يقابله هوان في الآخرة، واغترار بالمتاع يقابله انقطاع النعيم، وإعراض عن الحق يقابله حضور العذاب.

ثم بين سبحانه سبب هذا الجزاء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

أي بسبب ما كان منكم من استعلاء على الحق، وامتناع عن الانقياد لله، وخروج عن طاعته.

والاستكبار هو التعاظم وطلب الكبر، ويكون مذمومًا إذا حمل صاحبه على رد الحق واحتقار الخلق.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ليس معناه أن هناك استكبارًا مشروعًا في مقابله، وإنما هو وصف كاشف لحقيقة استكبارهم؛ لأن التعاظم على الخلق بغير حق ظلم وعدوان.

أما الفسق فهو الخروج عن طاعة الله، وأصله في اللغة الخروج، ومنه فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها.

وجاء الفعل ﴿تَفْسُقُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد الفسق واستمراره، بينما جاء الاستكبار بصيغة الفعل الماضي المتصل بكان، للدلالة على استقرار هذه الخصلة فيهم.

وقد جمع الله بين الاستكبار والفسق؛ لأن الاستكبار يتعلق بموقف النفس من الحق والخلق، والفسق يتعلق بالخروج عن أمر الله، وهما متلازمان في حال هؤلاء المكذبين.

وهكذا يختم المقطع بمشهد يفسر عاقبة الفريق الذي رفض الاستقامة، واستكبر عن الحق، وأعرض عن الوحي، وجعل متاع الدنيا غايته.

❖ **تحرير المسائل التفسيرية والترجيحات في المقطع**

المسألة الأولى :هل الاستقامة مرتبة فوق مجرد الإيمان؟

الاستقامة ليست أصلًا مستقلًا عن الإيمان، وإنما هي لزوم مقتضاه والثبات عليه .ولذلك جمعت الآية بين القول والاستقامة؛ فالإيمان أصل، والاستقامة ثمرة لازمة له.

ولا يصح حصر الاستقامة في عمل واحد، كالصلاة أو اجتناب الكبائر، وإن كان كل منهما داخلًا فيها؛ لأنها تشمل اعتدال الاعتقاد والقول والعمل على هدي الله.

المسألة الثانية :ما دلالة الأربعين في الآية؟

الأربعون سنٌّ خصها الله بالذكر في سياق اكتمال نضج الإنسان واستحضاره لمسؤوليته عن نفسه ووالديه وذريته.

لكن لا يجوز تحويل هذا التخصيص إلى قاعدة شرعية توجب حصول النضج أو الصلاح لكل إنسان عند بلوغ هذه السن؛ فالآية تصف حالًا من أحوال الإنسان، ولا تقرر حكمًا عامًا في تفاوت طبائع الناس.

المسألة الثالثة :ما أثر الآية في استنباط أقل مدة الحمل؟

الاستدلال بالآية على أن أقل الحمل ستة أشهر استدلال صحيح من جهة جمع النصوص؛ لأن مجموع الحمل والفصال ثلاثون شهرًا، ومدة الرضاع التام حولان، فيبقى للحمل ستة أشهر. وهذه المسألة من الأدلة على أن تفسير القرآن بالقرآن ليس مجرد بيان لفظ بلفظ، بل قد يكون جمعًا بين آيات متعددة لاستخراج حكم شرعي لا يظهر من إحداها منفردة[1].

المسألة الرابعة :هل الآية السابعة عشرة نزلت في شخص معين؟

---

١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآيات الخامسة عشرة إلى العشرين، في أحكام الوصية بالوالدين، وأقل مدة الحمل، ومعاني الاستكبار والفسق

وردت أقوال في تعيين الابن المذكور، وأشهرها القول بعبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه . لكن لا يصح الجزم بسبب النزول اعتمادًا على مجرد الروايات التي لا يثبت إسنادها أو لا تتضح دلالتها.

والأولى تفسير الآية بعموم وصفها، مع ذكر القول في التعيين على أنه قول منقول لا حقيقة مقطوع بها.

المسألة الخامسة :هل ذم القرآن التمتع بطيبات الدنيا؟

لم يذم القرآن أصل التمتع بالحلال، وإنما ذم الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن حق الله، والاستكبار والفسق.

فالنعمة ليست مذمومة في ذاتها، وإنما يذم كفرانها أو استعمالها في المعصية أو جعلها غاية الحياة التي تصرف الإنسان عن الآخرة.

المسألة السادسة :ما وجه الجمع بين الجزاء بالأعمال وفضل الله؟

العمل سبب للجزاء، والفضل الإلهي أصل في التوفيق والقبول والمغفرة وإدخال الجنة .فلا تعارض بين قول الله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وبين الأحاديث التي تثبت أن دخول الجنة برحمة الله، لأن العمل نفسه من فضل الله، وثوابه من فضله.

- **الصلة النظمية بين الآيات في هذا المقطع**

انتظم هذا المقطع في مقابلة واضحة بين صورتين من الإنسان:

الصورة الأولى :إنسان عرف ربه، واستقام على الإيمان، وأحسن إلى والديه، واستحضر نعم الله، ودعا بصلاح ذريته، ثم تاب وأناب.

والصورة الثانية :إنسان جحد البعث، وأساء إلى والديه، واستهزأ بوعد الله، واستكبر عن الحق، وانشغل بمتاع الدنيا حتى استحق العذاب.

وبين الصورتين جاءت آية قبول الأعمال والتجاوز عن السيئات، ثم آية تفاوت الدرجات، لتقرر أن اختلاف المصائر ليس اعتباطًا، وإنما هو وفق أعمال العباد وعدل الله.

ويلاحظ أن المقطع افتتح بذكر الاستقامة وختم بمشهد العذاب، وبينهما عرض لطريقين متقابلين :طريق الشكر والتوبة والإحسان، وطريق الجحود والاستكبار والفسق[1].

---

١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير سورة الأحقاف، الآيات الثالثة عشرة إلى العشرين، في اتصال المقاطع ومناسبة الآيات وسياقها.

ومن هنا كان الانتقال إلى المقطع التالي انتقالًا من بيان مآل المستكبرين إلى استحضار مصارع المكذبين السابقين، وبخاصة قوم عاد، الذين اغتروا بقوتهم وأعرضوا عن إنذار نبيهم هود عليه السلام.

وهذا الانتقال يعيد بناء الحجة التاريخية التي افتتحت بها السورة؛ فقد أقامت الحجة أولًا على الخلق والوحي، ثم عرضت مواقف الناس من الرسالة، ثم بينت عاقبة الاستجابة والإعراض، والآن تستحضر نموذجًا تاريخيًّا يجسد عاقبة التكذيب والاستكبار في أمة كاملة.

المقطع الرابع: سنة الله في المكذبين ومشهد قوم عاد

تفسير الآيات: الحادية والعشرون إلى الخامسة والعشرين

نص آيات المقطع: قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أولًا: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ — استحضار تاريخ الإنذار ومصير المكذبين

يقول تعالى لنبيه ﷺ: اذكر لقومك خبر أخي عاد، هود عليه السلام، حين أنذر قومه بالأحقاف، ودعاهم إلى توحيد الله، وحذرهم من عذاب يوم عظيم.

جاء الأمر بالذكر عقب قوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فكان استحضار خبر عاد انتقالًا من تقرير سنة الجزاء إلى عرض نموذج تاريخي شاهد عليها. فالاستكبار الذي وصف به المكذبون ليس وصفًا مجردًا، بل له نظائر سابقة في الأمم، وقد انتهى بأصحابه إلى الهلاك.

والأمر في ﴿وَاذْكُرْ﴾ ليس مجرد استعادة خبر تاريخي، وإنما هو تذكير بما يحمل الخبر من اعتبار وحجة؛ إذ يُستدل بمصير أمة كذبت رسولها على أن الإمهال لا يعني الإهمال، وأن القوة والمنعة لا تمنعان نفاذ حكم الله.

معنى ﴿أَخَا عَادٍ﴾ ودلالة الأخوة : قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَخَا عَادٍ﴾ أي هودًا عليه السلام، وهو من قوم عاد ومن قبيلتهم ونسبهم؛ وإضافته إليهم بلفظ الأخوة تبرز صلته بهم، وأنه ليس غريبًا عن جماعتهم، بل هو واحد منهم يعرفونه ويعرفون نسبه ولسانه وأحواله. وهذا أدعى إلى قيام الحجة عليهم؛ فقد جاءهم ناصحًا من داخل مجتمعهم، لا وافدًا لا يعرفون صدقه ولا خبرته بهم.

والأخوة هنا أخوة النسب والقوم، لا الأخوة الإيمانية وحدها؛ لأن المخاطبين كانوا مكذبين به، وإنما يقال للرجل من القبيلة: أخوهم، باعتبار الاشتراك في النسب أو الجماعة.

وقد تكرر هذا النص في قصص الأنبياء، كقول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[1]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[2]. وفي ذلك بيان أن الرسل بُعثوا من أقوامهم، يعرفونهم ويخاطبونهم بلسانهم، وتقوم عليهم الحجة بمعرفتهم برسالتهم وأحوالهم.

ولا يلزم من هذا النص أن تكون الأخوة مستلزمة للموافقة في الاعتقاد؛ بل قد يكون الرجل أخًا لقومه في النسب، وهو مخالف لهم في دينهم، كما كان هود عليه السلام مخالفًا لقومه في عبادتهم[3].

معنى الأحقاف وتحديد موضعها : قول الله تعالى: ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ متعلق بإنذار هود قومه، أي أنذرهم في أرض الأحقاف.

والأحقاف جمع حِقْف، وهو الرمل المستطيل المرتفع أو المعوج، وقيل: ما استطال من الرمل واعوجّ، ومنه سميت الأحقاف؛ لكونها أرضًا ذات كثبان رملية ممتدة[4].

وهذا هو المعنى اللغوي الذي يدل عليه اللفظ، أما تحديد الموضع الجغرافي المقصود في الآية فقد اختلفت فيه عبارات المفسرين وأهل الأخبار.

فمنهم من ربطها ببلاد عاد في جنوب الجزيرة العربية، ومنهم من عيّنها في نواحي حضرموت وما جاورها، ووردت أقوال في تعيين مواضع بعينها من تلك الناحية.

والذي ينبغي تحريره أن الآية تثبت وقوع إنذار هود عليه السلام في الأحقاف، وأن الأحقاف أرض رمال ذات وصف معروف، أما تعيين حدودها الدقيقة، وربطها بموضع أثري محدد، فلا يثبت بمجرد الأقوال الجغرافية المتوارثة.

كما لا يصح جعل كل ما يروى عن مساكن عاد وأطلالها خبرًا تاريخيًّا قطعيًّا؛ إذ ينبغي التمييز بين مدلول النص، وأقوال المفسرين في تحديد المكان، وما يروى من أخبار لا يقوم عليها دليل حاسم.

وهذا التمييز مهم؛ لأن المقصود القرآني من ذكر الأحقاف ليس رسم خريطة جغرافية للمنطقة، وإنما وضع الإنذار في سياقه المكاني والتاريخي، وربط دعوة هود بقوم عرفوا بسطوة القوة والعمران.

---

١ سورة الأعراف: ٦٥.

٢ سورة الأعراف: ٧٣.

٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير سورة الأحقاف، الآيات الحادية والعشرون إلى الخامسة والعشرين؛ في مناسبة ذكر عاد، ودلالة وصف هود بأنه أخو قومه، واتصال الإنذار بسياق السورة.

٤ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الحادية والعشرون؛ في معنى الأحقاف وأقوال السلف في تحديد موضعها، وترجيحه اللغوي.

ثانيًا: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ – وحدة الرسالات وتتابع الإنذار

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. هذه الجملة اعتراض بين ذكر إنذار هود لقومه وبين مضمون إنذاره، جاءت لتبين أن دعوته لم تكن أمرًا مبتدأً لا سابقة له، بل كانت امتدادًا لدعوة الرسل إلى توحيد الله والتحذير من عذابه.

والنُّذُر جمع نذير، ويحتمل أن يكون المراد به الرسل الذين أنذروا أقوامهم، أو الإنذارات التي جاءت بها الرسل، والمعنيان متلازمان؛ لأن الإنذار إنما يقع على ألسنة المنذرين.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، فالأصل في النص أن ما بين يدي الإنسان ما تقدمه، وما خلفه ما تأخر عنه. والمراد أن الإنذارات والرسل قد توالت قبل هود وبعده، فيكون ذكره واقعًا في سلسلة متصلة من الرسالات.

وقد ذكر المفسرون في توجيه هذه الجملة وجهين:

الأول: أن المراد أن الرسل تقدمت هودًا وجاءت بعده، وأن رسالته كانت ضمن سلسلة النبوات المتتابعة.

والثاني: أن المراد بالإنذارات ما أحاط بقومه من التحذير من جهات متعددة، أو ما سبق من أخبار الأمم المنذرة.

والذي يظهر من السياق أن المعنى الأول أظهر؛ لأن ذكر هود في هذا الموضع يراد به تذكير قريش بأن تكذيب رسولهم ليس حادثة منفصلة عن تاريخ الرسالات، وأن دعوة محمد ﷺ امتداد لدعوة إخوانه من الأنبياء.

وهذا المعنى تؤيده آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

فأصل الرسالة واحد، وإن اختلفت الشرائع والأحكام بحسب ما اقتضته حكمة الله في الأمم.

وهنا تظهر مناسبة ذكر هذه الجملة في سياق السورة؛ إذ سبق أن احتج المكذبون على الرسول ﷺ بأنه لم يأت بآية من جنس ما يقترحونه، ثم عرضت السورة شهادة أهل العلم من بني إسرائيل، وذكرت أن القرآن مصدق لما سبقه من الوحي، والآن يأتي خبر هود ليؤكد وحدة الأصل الذي اجتمعت عليه دعوات الأنبياء.

---

١ سورة فاطر: ٢٤.

٢ سورة النحل: ٣٦.

ثالثًا: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ – حقيقة دعوة الأنبياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. هذا هو مضمون إنذار هود عليه السلام، وقد جاء في غاية الإيجاز والوضوح: توحيد الله في العبادة، والتحذير من عاقبة الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ متعلق بمضمون الإنذار، أي أنذرهم بأن لا يعبدوا إلا الله، وقيل: إن التقدير أنذرهم قائلًا: لا تعبدوا إلا الله. والمعنى في الوجهين واحد.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي حق الله على عباده، فلا تصرف لغيره.

وقد جاء التركيب بالنفي والاستثناء: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فبدأ بنفي العبادة عما سوى الله، ثم أثبتها له وحده، وهذا يحقق معنى التوحيد؛ إذ لا يكفي أن يقر الإنسان بوجود الله أو بربوبيته، مع صرف شيء من العبادة لغيره.

ومن هنا كان الشرك الذي وقع فيه قوم عاد مناقضًا لأصل الرسالة، مهما بلغت قوتهم أو كثرت أموالهم أو عظم سلطانهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لم يقل هود: إنني أتوعدكم، وإنما قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، وفي ذلك إظهار للشفقة والحرص على نجاتهم.

والخوف هنا خوف الرسول على قومه من عاقبة الشرك، لا خوفه منهم؛ لأنه يعلم أن الإعراض عن أمر الله يفضي إلى العذاب.

وإسناد الخوف إلى نفسه يحمل معنى النصح الصادق، فكأنه يقول: إنما أحذركم رحمة بكم، وخشية أن يصيبكم ما لا طاقة لكم به.

أما ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فيحتمل أن يراد به عذاب يوم القيامة، وأن يراد به يوم نزول العذاب الدنيوي الذي حل بعاد. ولا يمتنع أن يكون الإنذار شاملًا للعذابين؛ لأن الشرك سبب للعقوبة في الدنيا والآخرة.

غير أن سياق القصة في الآيات التالية ينتقل إلى عذاب دنيوي معين، وهو الريح التي أهلكت قوم عاد، ثم تبقى دلالة اليوم العظيم أوسع من حصرها في ذلك المشهد.

وفي هذا دليل على أن دعوة الرسل تبدأ بتصحيح أصل الاعتقاد، وأن التحذير من العذاب تابع لبيان الحق، لا منفصل عنه.

رابعًا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ – انقلاب الموازين عند المكذبين

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

جاء جواب قوم عاد كاشفًا عن حقيقة موقفهم؛ فلم يناقشوا دعوة هود من جهة الدليل، ولم يتأملوا حقيقة التوحيد، وإنما صوروا دعوته على أنها محاولة لصرفهم عن آلهتهم.

والاستفهام في ﴿أَجِئْتَنَا﴾ إنكاري، يتضمن الاستبعاد والاعتراض، كأنهم يقولون: أهذا هو غرضك من مجيئك إلينا، أن تصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا؟

تحرير معنى ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ الأفك في أصل اللغة الصرف والقلب عن الوجه الصحيح، ويأتي بمعنى الكذب والبهتان؛ لاتصاله بصرف الحقيقة عن وجهها.

والمعنى هنا: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا وتحوّلنا عنها؟

واستعمالهم هذا اللفظ يكشف عن انقلاب الموازين في نفوسهم؛ فهم يجعلون دعوة هود إلى عبادة الله وحده نوعًا من الصرف عن الحق، مع أن ما يدعوهم إليه هو أصل الحق، وما هم عليه من عبادة الأصنام هو الباطل.

فقد صار المعروف عندهم منكرًا، والمنكر معروفًا، بسبب استقرار التقليد في نفوسهم.

ولم يقولوا: أجئتنا لتدعونا إلى الحق، بل قالوا: ﴿لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾، فجعلوا آلهتهم هي الأصل الذي ينبغي المحافظة عليه، وجعلوا التوحيد خروجًا عن الاستقامة المألوفة.

وفي هذا دلالة على أن رسوخ الباطل في النفوس قد يحول دون إدراك حقيقة الدعوة، حتى ينظر صاحب الهوى إلى الحق باعتباره اعتداء على ما ألفه.

قول الله تعالى: ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ إضافتهم الآلهة إلى أنفسهم تكشف عن شدة تعلقهم بها، وكأنها جزء من هويتهم الموروثة التي لا يقبلون المساس بها.

والإضافة هنا لا تثبت لها حقيقة الألوهية، وإنما تحكي اعتقادهم فيها؛ فالقرآن يورد كلامهم على وجه الكشف عن فساد تصورهم.

وقد قدموا المحافظة على المعبودات التي اعتادوها على النظر في الحجة التي جاءهم بها رسولهم.

ثم انتقلوا من الإنكار إلى التحدي فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

الفاء تفيد تفريع هذا الطلب على إنكارهم دعوته، كأنهم يقولون: إن كنت صادقًا فيما تخبرنا به من العذاب، فلا تؤخره، بل ائتنا به.

وهذا ليس طلبًا صادقًا للبرهان، وإنما هو تحدٍّ ناشئ عن الاستكبار والاستخفاف بالإنذار.

وقد نقلوا القضية من النظر في صدق الرسول ودلالة ما جاء به إلى استعجال العقوبة التي حذرهم منها؛ إذ لم يجدوا في أنفسهم استعدادًا لقبول الحجة.

وتأمل المقابلة بين قول هود: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾.

الأول خطاب رحمة وشفقة، والثاني خطاب تحدٍّ واستخفاف؛ فالمسافة بين الموقفين ليست مسافة اختلاف في الرأي فحسب، بل اختلاف في استقبال الحق وأثره في النفس.

خامسًا: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ – اختصاص الله بعلم الغيب وحدود وظيفة الرسول

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

جاء جواب هود على تحديهم بإعادة الأمر إلى موضعه الصحيح: علم وقت العذاب عند الله، وأما وظيفة الرسول فهي تبليغ ما أوحاه الله إليه.

معنى ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ "إنما" أداة قصر، تفيد هنا اختصاص العلم بموعد نزول العذاب بالله سبحانه.

والمقصود العلم بوقت إنزال العقوبة وكيفيتها وما يتعلق بتقديرها، لا نفي علم الرسول بكل ما أخبره الله به من أمر العذاب.

فهود عليه السلام لا يملك أن ينزل العذاب متى شاء، ولا يعلم موعده استقلالًا، وإنما ينتظر أمر الله وتقديره.

وهذه قاعدة في باب النبوة والغيب: الرسول لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، ولا يملك من أمر الوحي إلا ما أذن الله له في تبليغه.

وقد قرر القرآن هذا الأصل في قول الله تعالى:﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾[2].

---

١ الأعراف: ١٨٨.

٢ الجن: ٢٦-٢٧.

فلا تعارض بين اختصاص الله بعلم الغيب وبين إطلاع بعض رسله على شيء منه؛ لأن ما يطلعهم عليه إنما هو بإذنه ووحيه.

قول الله تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ انتقل هود من بيان ما لا يملكه إلى بيان ما كُلّف به.

فالتبليغ هو أداء الرسالة وإيصال ما أوحاه الله إلى المخاطبين، دون تحريف أو كتمان.

وفي هذا رد على توهمهم أنه يملك إنزال العذاب أو تأخيره؛ فهو رسول منذر، وليس متصرفًا في خزائن القدرة الإلهية.

وقد جاء النص بـ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ دون أن يقول: ما أعلمه أو ما أراه، ليربط مضمون الدعوة بمصدرها الإلهي، لا برأي الرسول واجتهاده الشخصي.

وهذا من أصول فهم مقام النبوة: الرسول مبلغ عن الله، ومصدر سلطته في الرسالة هو الوحي، لا مجرد مكانته بين الناس.

قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ الاستدراك هنا ينقل الخطاب من بيان وظيفة الرسول إلى تشخيص موقف القوم.

أي: لست أعلم موعد العذاب ولا أملكه، وإنما أبلغكم ما أوحاه الله إلي، ولكني أراكم قومًا تجهلون حقيقة ما تدعون إليه، وتجهلون عاقبة تكذيبكم.

والجهل في هذا السياق لا يقتصر على عدم المعرفة، بل يتضمن الإعراض عن مقتضى المعرفة واتباع الباطل مع قيام الحجة.

فقد عرفوا دعوة هود، وسمعوا إنذاره، لكنهم قابلوه بالتحدي بدل الاستجابة.

ومن هنا كان الجهل وصفًا لحالهم في الاعتقاد والعمل، لا مجرد نقص في المعلومات.

والنص بـ﴿أَرَاكُمْ﴾ يفيد أن هذا حكم ظاهر من حالهم وموقفهم، وليس اتهامًا مجردًا؛ فقد كشف كلامهم عن استهانتهم بالإنذار، وطلبهم العذاب استهزاءً.

وهذا الموضع يكشف أدب الأنبياء في الدعوة؛ فلم يبادلهم هود الاستهزاء بمثله، ولم يدّع لنفسه ما ليس له، وإنما رد العلم إلى الله، وأثبت لنفسه وظيفة التبليغ، وبيّن خلل موقفهم.

سادسًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ – انقلاب الرجاء إلى العذاب

قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هنا ينتقل السياق انتقالًا مفاجئًا من الحوار إلى مشهد نزول العذاب.

وقد طوى القرآن ذكر ما جرى بين تحديهم وبين ظهور العارض، فلم يفصل مدة الانتظار ولا تفاصيل الأحداث السابقة، وانتقل مباشرة إلى اللحظة التي رأوا فيها ما ظنوه سحابة ممطرة.

وهذا الإيجاز يوجه النظر إلى موضع المفاجأة: قوم استهزؤوا بالإنذار وطلبوا العذاب، فلما جاءهم ما يشبه أسباب الرحمة والخصب ظنوه نعمة، فإذا هو سبب هلاكهم.

معنى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى ما ظهر لهم من العارض، أي السحاب الذي أقبل عليهم.

واستعمال الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ يربط ظهور العذاب بما سبق من تكذيبهم واستعجالهم، ويختصر مرحلة طويلة من القصة في مشهد واحد.

معنى ﴿عَارِضًا﴾ العارض هو السحاب الذي يعرض في أفق السماء، أي يظهر ممتدًا في ناحية منها.

وقد استعمل القرآن هذا اللفظ ليصور هيئة السحاب قبل أن تنكشف حقيقته؛ فالمشهد في بدايته مشهد طبيعي مألوف، لا يبدو منه لأول وهلة ما يدل على العذاب.

وهذا الاختيار اللفظي مهم؛ لأن القوم لم يروا العذاب في صورته التي يعرفونها، بل رأوا عارضًا من السحاب، فحملوه على ما اعتادوه من المطر.

معنى ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي متجهًا نحو أوديتهم، مقبلًا عليها.

والاستقبال هنا يدل على اتجاه العارض إلى منازلهم وأرضهم، وكأن السحاب يسير نحوهم في الجهة التي ينتظرون منها المطر.

والأودية جمع وادٍ، وهو مجرى الماء بين الجبال والمرتفعات، وقد كانت الأودية من المواطن التي تتعلق بها حياة الناس في البيئات الصحراوية؛ لما يرتبط بها من جريان المياه ونمو الزرع.

وفي ذكر الأودية خصوصية تناسب حال قوم عاد؛ فهم قوم يعيشون في بيئة رملية، وتكون الأمطار والمياه فيها من أعظم أسباب الحياة والخصب.

قول الله تعالى: ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي قالوا فرحين بما رأوا: هذا سحاب سيأتينا بالمطر.

و"مُمْطِرُنَا" اسم فاعل من أمطر، أضيف إلى ضمير الجماعة، أي ممطر إيانا أو ممطر أرضنا.

وهنا تظهر المفارقة: الشيء الذي ظنوه سببًا للخصب كان يحمل إليهم أسباب الهلاك.

ولم يذكر القرآن أنهم تذكروا إنذار هود عند رؤيتهم العارض، بل حكى عنهم تفسيرًا دنيويًا مطمئنًا للمشهد، وكأنهم عادوا إلى ما ألفوه من توقع المطر.

ثم يأتي التصحيح الحاسم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾. "بل" للإضراب الانتقالي، تنقل السامع من تفسيرهم للمشهد إلى حقيقته.

أي ليس هذا سحابًا يحمل المطر الذي ترجونه، وإنما هو العذاب الذي كنتم تستعجلونه وتستهزئون بالإنذار به.

والنص بـ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ يعيد كلامهم السابق إلى مسامعهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾. فكأن العذاب يجيبهم عن تحديهم، لا بقول يسمعونه، بل بواقع يشاهدونه.

وهذا من أبلغ وجوه التناسب بين الآيتين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين؛ فقد طلبوا العذاب استهزاء، فجاءهم من حيث ظنوا النعمة[1].

معنى ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا بيان لحقيقة العارض، أي هو ريح تحمل عذابًا موجعًا.

وقد جاء التنكير في ﴿رِيحٌ﴾ لبيان نوع العارض وحقيقته، بعد أن كان في نظرهم سحابًا ممطرًا.

والريح هنا ليست ريحًا نافعة تحمل المطر، وإنما ريح عذاب سلطها الله عليهم.

ووصف العذاب بأنه ﴿أَلِيمٌ﴾ يدل على شدة ما فيه من الألم والإهلاك، ويهيئ النفس لما يأتي بعده من وصف التدمير الشامل.

وهنا ينبغي التمييز بين هذا الموضع وبين المواضع القرآنية الأخرى التي وصفت ريح عاد بأنها صرصر وعاتية وعقيم؛ فهذه أوصاف وردت في سياقات مختلفة، يجمعها بيان شدة الريح وكونها عذابًا مسلطًا عليهم[2].

---

١ البخاري، الجامع الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب إذا رأى سحابًا أو ريحًا، ومسلم، الصحيح، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر.

٢ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآيات الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون؛ في تفسير العارض والريح والتدمير.

قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1].
وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[2].
ولا يلزم من اختلاف الأوصاف اختلاف الحادثة؛ بل هي أوصاف متعددة لريح واحدة من حيث ما اشتملت عليه من الشدة والعقم والإهلاك.

سابعًا: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ – حقيقة التدمير وحدود عمومه

قال الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. بعد أن كشف سبحانه حقيقة العارض، انتقل إلى بيان أثر الريح في قوم عاد، فذكر فعلها، ثم ذكر ما آل إليه القوم، ثم ختم بقاعدة عامة في جزاء المجرمين.

معنى ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ التدمير هو الإهلاك والإفساد والإزالة الشديدة، ويقال: دمّر الشيء إذا أهلكه وأزال بنيانه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يفيد شمول التدمير لما تعلّق به العذاب من أموالهم وممتلكاتهم ومظاهر قوتهم وما كان سببًا في بقائهم.

لكن هذا العموم لا يحمل على استغراق كل موجود في العالم؛ إذ المراد كل شيء أُرسلت الريح لتدميره في نطاق قوم عاد، بدليل قول الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾. فالآية نفسها تحدد مجال التدمير، وتبين أن المراد استئصال القوم وما يتعلق بهم، لا إفناء الموجودات جميعًا.

وهذا من العموم الذي يحدده السياق، وهو معروف في الاستعمال العربي؛ فقد يقال: أهلك القوم كل شيء، والمراد كل ما يتصل بهم مما تناوله الهلاك.

ويؤيد هذا التفسير قول الله تعالى في موضع آخر: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[3].

أي لم تدع شيئًا مما أتت عليه إلا أهلكته وأحالته إلى البلى.

كما قال سبحانه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[4].

---

١ الحاقة: ٦.
٢ الذاريات: ٤١.
٣ الذاريات: ٤٢.
٤ الحاقة: ٧.

وهذا التصوير يبين شدة الريح وما أحدثته في أجساد القوم ومظاهر عمرانهم.

قول الله تعالى: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ هذه الجملة في غاية الأهمية؛ لأنها ترد الأمر كله إلى مشيئة الله وتدبيره.

فالريح لا تعمل بقوة مستقلة، ولا تملك أن تهلك من تشاء أو تبقي من تشاء، وإنما هي مخلوق مسخر بأمر الله.

وفي هذا رد على كل تصور يجعل الأسباب الطبيعية مستقلة بالتأثير عن خالقها؛ فالأسباب تجري وفق سنن الله، وتؤثر بإذنه، ولا تخرج عن سلطانه.

والنص بـ﴿رَبِّهَا﴾ يبرز معنى التدبير والتسخير؛ فالذي خلق الريح هو الذي وجهها، والذي قدر العذاب هو الذي جعلها أداة لتنفيذه.

ولذلك لا يصح النظر إلى الريح هنا باعتبارها حادثة طبيعية مجردة منفصلة عن سياق النبوة والإنذار؛ فالقرآن يقرر أنها عذاب أرسله الله على قوم مخصوصين بسبب تكذيبهم.

معنى ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الفاء تفيد ترتيب النتيجة على ما سبق؛ فلما دمرت الريح ما دمرت، انتهى أمر القوم إلى حال لم يبق فيها ما يدل على وجودهم إلا مساكنهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ ليس المقصود به مجرد دخول الصباح، وإنما يفيد تحول حالهم إلى ما انتهوا إليه بعد وقوع العذاب.

و﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي لا يرى الناظر بعد هلاكهم إلا آثار مساكنهم، وقد خلت من أهلها.

وهذا التصوير أبلغ من مجرد القول إنهم هلكوا؛ لأنه ينقل صورة المكان بعد أن كان معمورًا بأهله، فإذا هو خالٍ منهم.

فالمساكن التي كانت شاهدًا على قوتهم واستقرارهم أصبحت شاهدًا على فنائهم.

وفي هذا تناسب مع ما سبق في السورة من ذكر الأحقاف؛ فقد افتتحت القصة بتحديد المكان الذي أنذر فيه هود قومه، وانتهت بإظهار ما بقي من مساكنهم بعد هلاكهم.

فالمكان الذي شهد الدعوة والإنذار صار شاهدًا على عاقبة التكذيب.

ومن جهة أخرى، فإن الآية لا تفصل هيئة الخراب تفصيلًا تاريخيًا أو أثريًا، وإنما تركز على النتيجة التي يراد الاعتبار بها: ذهاب أهل القوة وبقاء آثار مساكنهم.

ثامنًا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ – انتقال الواقعة من التاريخ إلى سنة الجزاء

ختم سبحانه قصة عاد في هذا المقطع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي مثل هذا الجزاء الذي أنزلناه بعاد نجزي من كان على شاكلتهم في الإجرام والتكذيب والاستكبار، إذا استحقوا العقوبة وقامت عليهم الحجة.

والكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه، والإشارة إلى الجزاء الذي تقدم وصفه، أي كما عاقبنا هؤلاء المكذبين نعاقب من اتصف بوصفهم.

ولم يقل: كذلك جزينا عادًا فحسب، بل قال: ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، فجاء النص عامًا ليخرج بالقصة من حدود الحادثة الماضية إلى سنة إلهية تتكرر في الأمم.

والإجرام من الجرم، وهو الذنب العظيم الذي يكتسبه الإنسان، ويكون في هذا السياق متضمنًا للشرك والتكذيب والتمرد على أمر الله.

وقد وصفهم بالإجرام بدل أن يقتصر على وصفهم بالكفر، لأن السياق يعرض مجموع سلوكهم: عبادة غير الله، ورد دعوة الرسول، والاستهزاء بالإنذار، والاستكبار عن الحق.

وفي ذلك بيان أن العقوبة لم تقع لمجرد اختلافهم مع هود، بل بسبب إجرامهم الذي استقروا عليه بعد الإنذار.

والنص بالمضارع ﴿نَجْزِي﴾ يفيد تجدد هذه السنة واطرادها؛ فالجزاء ليس خبرًا عن أمة مضت وانتهى أثر قصتها، وإنما هو بيان لطريقة الله في معاملة من يسلك سبيلها.

ولا يعني ذلك أن كل أمة مكذبة تهلك بالطريقة نفسها أو في الزمن نفسه؛ فالله يقدر لكل أمة ما يشاء، وله في الإمهال والإنذار والابتلاء والحساب حكمته وعدله.

المسألة العقدية: هل الريح فاعلة بذاتها أم بأمر الله؟

دلت الآية على أن الريح سبب حقيقي للعذاب، لكنها ليست مستقلة عن مشيئة الله.

فإثبات الأسباب لا ينافي التوحيد، كما أن رد الأمر إلى الله لا يقتضي نفي الأسباب التي جعلها الله مؤثرة.

والقرآن يجمع بين الأمرين؛ فيذكر الريح التي أهلكت عادًا، ثم يقرر أنها فعلت ذلك ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

وهذا أصل في فهم العلاقة بين الأسباب والمسببات: الله هو الخالق المدبر، والأسباب مخلوقاته، لا تخرج عن أمره وسلطانه.

المسألة التفسيرية: هل بقيت مساكن عاد بعد هلاكهم؟

ظاهر الآية إثبات بقاء مساكنهم بحيث صارت هي الظاهرة بعد هلاك أهلها، ولا يلزم من ذلك أن تكون جميع تلك المساكن باقية إلى عصرنا أو أن موضعها الحالي معلوم على وجه القطع.

فالآية تتحدث عن الحالة التي أعقبت الهلاك، وليس فيها تحديد لمدى بقاء الآثار بعد ذلك، ولا تعيين للأبنية التي يمكن نسبتها تاريخيًا إلى عاد.

ومن ثم لا يصح أن تُجعل الأبنية أو الآثار المنسوبة إلى حضارات قديمة دليلًا قاطعًا على مساكن عاد دون برهان مستقل.

تاسعًا: التفسير بالمأثور والحديث في مشهد الريح

تتضافر آيات القرآن في بيان عذاب عاد، ويشرح بعضها بعضًا.

ففي سورة الحاقة وصف الله الريح بأنها: ﴿رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1] والصرصر شديدة البرد أو شديدة الصوت والهبوب، بحسب ما ذكره أهل اللغة والتفسير في توجيه اللفظ، والعاتية الشديدة المتجاوزة في قوتها.

وفي سورة الذاريات وصفها بأنها: ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[2]. والعقيم هي التي لا خير فيها ولا تحمل مطرًا نافعًا، أو التي لا تثمر أثرًا من آثار الإحياء والإنبات، بل يكون أثرها الإهلاك.

---

١ الحاقة: ٦.

٢ الذاريات: ٤١

وفي سورة القمر جاء وصفها: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[1].
وهذه الأوصاف تتكامل في بيان طبيعة العذاب، ولا تتعارض فيما بينها.
وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت أن النبي ﷺ كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، وأنه كان يخشى أن يكون فيه عذاب، وذكرت أنه قال في شأن الريح: "وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح".
وفي الحديث بيان أن الريح ليست دائمًا علامة على الرحمة، وإن كانت في أصلها من نعم الله، فقد يجعلها الله رحمة وقد يجعلها عذابًا.
وهذا لا يعني أن كل ريح شديدة أو عاصفة دليل على عقوبة إلهية مخصوصة؛ إذ لا يجوز تعيين العذاب على أشخاص أو أمم معاصرة بغير وحي أو دليل.
فما أخبر الله به عن عاد خبر غيبي ثبت بالقرآن، أما تنزيله على حوادث بعينها في زماننا فباب آخر لا يجوز فيه الجزم بغير علم.

- **عاشرًا: التحرير اللغوي والبياني في المقطع**

تظهر في هذا المقطع مجموعة من الاختيارات اللفظية التي تخدم بناء المشهد وتدرج الحجة:

أولًا: الانتقال من الذكر إلى المشاهدة.

افتتح المقطع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، ثم انتهى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾. فالخطاب يبدأ باستحضار خبر تاريخي، ثم ينتقل إلى تصوير لحظة وقوع العذاب، حتى يكاد القارئ يشاهد المشهد.

ثانيًا: المقابلة بين الإنذار والاستعجال.

قال هود: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾. فاجتمع في الموضع خطاب النصح وخطاب الاستهزاء، لتظهر المسافة بين قلب الرسول المشفق وقلب المكذب المستكبر.

ثالثًا: المقابلة بين الظاهر والحقيقة.

قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾، ثم كشف الله حقيقة ما رأوا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾.

---

[1] القمر: ١٩.

وهذه من أقوى صور المفارقة في القصة؛ إذ جاءهم العذاب في صورة ما كانوا يرجونه من النعمة.

رابعًا: التدرج في كشف العذاب.

لم يبدأ السياق بوصف التدمير مباشرة، بل بدأ برؤية العارض، ثم ظنهم أنه مطر، ثم كشف حقيقته، ثم وصف أثره، ثم ذكر ما بقي من مساكنهم.

وهذا التدرج يجعل المشهد ينتقل من الإدراك الحسي إلى انكشاف الحقيقة، ثم إلى ظهور النتيجة النهائية.

خامسًا: ختم الواقعة بالقاعدة العامة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.فلم يجعل القصة مجرد خبر عن قوم مضوا، بل جعلها شاهدًا على عدل الله في الجزاء، وعلى أن الإجرام والتكذيب لا يخرجان عن سنن الله.

❖ **الحادي عشر: الترجيحات العلمية في المقطع**

يمكن تحرير أهم مواضع الترجيح فيما يأتي:

١. **في تحديد الأحقاف** :الراجح أن الأحقاف هي الرمال المستطيلة المرتفعة، وأما تعيين موضعها الجغرافي الدقيق فلا دليل قاطع عليه. وهذا قريب من اختيار الطبري، إذ لم يجزم بواحد من الأقوال في تحديد المكان، ورأى أن الجهل بتعيينه لا يضر ولا يترتب عليه واجب .

٢. **في معنى ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾** :الأظهر أن المراد تتابع الرسل والإنذارات قبل هود وبعده، في إطار وحدة أصل الرسالات. وهو ما يتناسب مع السياق الذي يجعل قصة عاد شاهدًا على امتداد دعوة التوحيد.

٣. **في معنى ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** :المراد اختصاص الله بعلم وقت نزول العذاب، لا نفي ما يطلع الله عليه رسله من أخبار الغيب.

٤. **في عموم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾** :المراد كل ما تعلّق به التدمير في نطاق القوم وما سلطت عليه الريح، لا كل موجود في الوجود.

٥. **في دلالة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** :الآية تذييل يتجاوز الواقعة الخاصة إلى تقرير سنة الجزاء، دون أن يلزم منه تماثل العقوبات في جميع الأمم.

المقطع الخامس :الاعتبار بمصارع الأمم السابقة وسقوط حجج المشركين

تفسير الآيات السادسة والعشرين إلى الثامنة والعشرين

نص آيات المقطع: قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أولًا :﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ —القوة ليست دليلًا على النجاة

يقول تعالى، عقب ذكر ما أنزله بقوم عاد من العذاب :لقد مكّنّا الأمم السابقة، وآتيناها من أسباب القوة والقدرة والتمتع بأسباب الحياة ما لم نمكّنكم، يا معشر قريش، من مثله أو أكثره.

فالآية متصلة بما قبلها اتصال الاعتبار والتعليل؛ إذ لما ذكر الله هلاك عاد، وأنه جزاء القوم المجرمين، أزال عن المشركين توهم أن ما هم فيه من القوة والمنعة يمكن أن يكون حاجزًا بينهم وبين العقوبة، وذكّرهم بأمم كانت أقوى منهم، ومع ذلك لم تمنعها قوتها من نفاذ حكم الله.

- **تحرير معنى التمكين:** التمكين في أصل اللغة جعل الشيء ذا مكان واستقرار وقدرة، ويستعمل في تثبيت الإنسان في الأرض وإعطائه أسباب السلطان والتصرف.

ومعنى ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ هنا :جعلنا لهم من أسباب القوة والقدرة والاستقرار والعمران ما استطاعوا به التصرف في الأرض، وإقامة ما أقاموا من مظاهر الحياة والسلطان.

ولم يحدد النص نوع التمكين في صورة واحدة، ولذلك لا ينبغي قصره على القوة العسكرية أو العمران وحدهما؛ بل يدخل فيه ما اجتمع لهم من أسباب القدرة والمنعة والانتفاع بما سخر الله لهم.

معنى ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ هذه من المواضع التي وقع فيها بحث نحوي وتفسيري.

وقد ذكر أهل التفسير في "إن" أوجهًا، منها أنها زائدة في التركيب، وأن المعنى :مكّنّاهم فيما مكّنّاكم فيه؛ أي إن تمكينهم كان أعظم من تمكين المخاطبين.

وقيل :إن "إن" تفيد معنى النفي، على وجه من أوجه التوجيه اللغوي، ويكون المعنى أنهم مُكّنوا في أشياء لم يُمكّن منها المخاطبون.

والذي يظهر أن المقصود العام في السياق هو بيان تفوق الأمم السابقة على قريش في أسباب التمكين، وأن ما أوتيته قريش من القوة لا يوازي ما أوتيه بعض أولئك من أسباب السلطان والمنعة.

ولا يتوقف فهم الآية على حسم جميع الأوجه النحوية؛ لأن المقارنة في سياق الاعتبار واضحة :أمم سبقت قريشًا، ومُكّنت في الأرض، ثم لم تغن عنها قوتها حين كذبت رسل الله.

والنص بالمقارنة بين الفريقين يحمل تهديدًا لقريش من غير تصريح مباشر بتعيين مصيرها؛ إذ يترك لها أن تستحضر مصير من سبقها، وأن تعلم أن أسباب القوة لا تمنح أصحابها حصانة من الجزاء.

وهنا تظهر دقة ترتيب القصة :لم يكتف القرآن بذكر أن عادًا هلكت، بل أعقب ذلك بذكر ما كانت عليه من التمكين؛ حتى لا يتوهم متوهم أن الهلاك إنما أصاب أمة ضعيفة لا تملك أسباب البقاء.

ثانيًا :﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ —قيام الحجة بنعم الإدراك

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾. بعد أن ذكر الله تمكين الأمم السابقة في أسباب القوة الخارجية، ذكر ما آتاها من أسباب الإدراك الداخلي والخارجي؛ فالسمع والأبصار والأفئدة هي آلات تلقي الدليل والنظر فيه وفهمه.

والسمع مفرد في اللفظ، مع أنه مضاف إلى جماعة، بخلاف الأبصار والأفئدة، وقد جاء هذا الاستعمال موافقًا لطبيعة اللفظ العربي؛ إذ يستعمل السمع مصدرًا دالًا على جنس هذه الحاسة.

أما الأبصار فهي جمع بصر، والمراد بها حاسة الرؤية وما يتصل بها من إدراك المشاهدات.

والأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، ويأتي في الاستعمال القرآني موضعًا للفهم والإدراك والتعقل والاعتبار.

وقد جمع الله هذه الثلاثة؛ لأن الإنسان يتلقى كثيرًا من المعارف عن طريق السمع والبصر، ثم يتدبرها بقلبه وعقله.

ويتصل هذا المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

فجعل السمع والأبصار والأفئدة من نعم الله التي بها يحصل العلم والتمييز، ويكون الشكر باستعمالها فيما يرضيه.

وفي الآية هنا وجه آخر من الحجة :لم يكن تكذيب الأمم السابقة ناشئًا عن انعدام أدوات المعرفة، ولا عن فقدان القدرة على النظر، فقد جعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، لكنهم لم ينتفعوا بها الانتفاع الذي يقتضيه الحق.

وهذا يبين أن مجرد امتلاك أدوات الإدراك لا يضمن الوصول إلى الهدى؛ إذ لا بد من سلامة القصد، وصدق الطلب، والاستجابة لما يظهر من الحجة.

ولا يراد بذلك أن الإنسان يستقل بإدراك كل حق بمجرد حواسه، وإنما المراد أن الله أقام عليه من دلائل الهدى وأسباب المعرفة ما تقوم به الحجة، وأن الإعراض عنها لا يصير عذرًا لمجرد امتلاكه وسائل الإدراك.

ويؤكد الطبري هذا المعنى في تفسيره؛ إذ يبين أن تلك الأمم أُعطيت من الأموال وبسطة الأجسام وشدة الأبدان ما لم يُعط مثله لقريش، وأنها لم تنتفع بحواسها لأنها لم تستعملها فيما

---

١ النحل: ٧٨.

ينجيها من عذاب الله .وهذا تفسير منقول يوافق دلالة السياق، ويكشف أن موضع المؤاخذة ليس فقدان وسائل الإدراك، وإنما الجحود بعد قيام الحجة .[1]

ثالثًا :﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ –بطلان الانتفاع بأسباب المعرفة عند الجحود

هذا هو موضع الانتقال من ذكر النعمة إلى بيان عاقبة تعطيلها.

فقد جعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، ثم نفى أن تكون هذه الوسائل قد أغنت عنهم شيئًا حين نزل بهم العذاب.

والإغناء هنا بمعنى الدفع والنفع والكفاية؛ أي لم تدفع عنهم حواسهم وعقولهم شيئًا من عذاب الله، ولم تستطع أن تحول بينهم وبين ما استحقوه من العقوبة.

وتكرار السمع والأبصار والأفئدة بعد ذكرها أولًا مقصود؛ إذ أعادها في مقام نفي النفع، ليظهر التباين بين النعمة من حيث وجودها، والعجز عن الانتفاع بها حين لم تؤد وظيفتها التي خلقت لها.

فليس العجز هنا عجزًا في الحواس من حيث أصل الخلقة، وإنما هو عجز في تحصيل النجاة؛ لأن أصحابها أعرضوا عن استعمالها في معرفة الحق.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، تفيد استغراق ما يمكن أن يتوهم من وجوه الإغناء، أي لم تدفع عنهم شيئًا من العذاب.

ثم بين سبحانه سبب ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

- **معنى الجحود وصلته بالاستكبار**

الجحود إنكار الحق مع قيام ما يدل عليه، ويستعمل في إنكار المعروف أو المعلوم الذي قامت عليه الحجة.

---

١ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية السادسة والعشرون؛ في معنى التمكين والسمع والأبصار والأفئدة والجحود. وينظر تفسير القرطبي وابن كثير للآية نفسها.

وقد اختير هنا لفظ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ دون مجرد عدم العلم؛ لأن السياق لا يصور قومًا لم تصل إليهم الدعوة، بل يصور أقوامًا جاءتهم الرسل، وظهرت لهم الآيات، ومُكّنوا من أسباب النظر والإدراك، ثم قابلوا ذلك بالإنكار.

والباء في ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ متعلقة بالفعل، أي كانوا يجحدون بآياته ولا يقرون بما تدل عليه من صدق الرسل ووجوب توحيده.

والآيات تشمل ما جاء به الرسل من البينات، وما أقامه الله في الكون من الدلائل، بحسب ما يتناوله السياق.

وهنا يتصل هذا الموضع بما سبق في السورة من وصف المكذبين بالاستكبار؛ فالجحود قد يكون ثمرة استعلاء النفس عن قبول الحق، لا مجرد خطأ في النظر أو قصور في الفهم.

فإذا اجتمع في الإنسان وضوح الدليل مع فساد القصد، لم تنفعه كثرة ما عنده من وسائل المعرفة.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن كل مخطئ في الاعتقاد جاحد بالضرورة؛ فالجحود وصف له دلالة أخص من مجرد الخطأ، ويتعلق بموقف الإنكار والإعراض بعد قيام الحجة بحسب حال صاحبه.

قول الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الحَيْق هو الإحاطة والنزول بالشيء من جوانبه، ويقال :حاق به الأمر إذا أحاط به ونزل به.

ومعنى الآية :أحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون من وقوعه ويستهزئون بإنذار الرسل به.

وفي النص بـ﴿حَاقَ بِهِمْ﴾ تصوير للعذاب وقد أحاط بالقوم، فلم يعد لهم منه مفر، بعد أن كانوا يتعاملون معه على أنه أمر مستبعد لا يقع.

والموصول في ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعيد إلى الأذهان ما سبق من طلبهم العذاب استهزاءً، وقولهم لرسلهم :ائتنا بما تعدنا.

فلم يعد الأمر خبرًا يسمعونه، وإنما صار واقعًا يحيط بهم.

وهذه مقابلة دقيقة بين حالين :حال الاستهزاء حين كانوا آمنين في ديارهم، وحال الإحاطة حين نزل بهم ما كانوا يسخرون منه.

والنص بالفعل الماضي ﴿حَاقَ﴾ يصور تحقق الأمر وانتهاءه، فكأن العذاب قد استقر بهم وأحاط، فلا سبيل إلى دفعه.

وفي هذا دليل على أن الاستهزاء بالوعيد لا يبطله، وأن تأخر العقوبة لا يدل على انتفاء وقوعها.

وهكذا اكتمل وجه الاعتبار في الآية السادسة والعشرين :تمكين عظيم، ونعم إدراكية واسعة، ثم جحود واستكبار، ثم عذاب لا تدفعه القوة ولا الحواس ولا العقول.

رابعًا :﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ —التاريخ القريب حجة على الغافلين

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه مصير عاد والأمم الممكّنة، انتقل من المثال الواحد إلى دائرة أوسع من الاعتبار، فخاطب قريشًا بما تعرفه من أخبار القرى والأمم التي كانت حولها.

والخطاب هنا موجه إلى مشركي مكة، وفيه تقريب للحجة من واقعهم؛ فليس الحديث عن أمم بعيدة لا صلة لهم بأخبارها، بل عن ديار وأمم عرفوا أخبار بعضها، ومروا بآثار بعضها، وسمعوا ما جرى عليها.

معنى ﴿مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ المراد القرى والأمم التي كانت في نواحي جزيرة العرب وما جاورها، ممن أهلكهم الله بسبب التكذيب والإجرام.

وقد ذكر المفسرون في تعيينها أمثلة، منها ديار ثمود بالحجر، وأرض قوم لوط، ومأرب وما يتصل بأخبار سبأ، وغير ذلك من المواضع التي ورد ذكرها في أخبار الأمم السابقة.

وذكر الطبري الحجر وأرض سدوم ومأرب ونحوها في تفسير الآية، باعتبارها من القرى التي تدخل في نطاق ما حول قريش [1].

- **لكن ينبغي التفريق بين أمرين:**

١ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية السابعة والعشرون؛ في معنى القرى المحيطة بمكة وتصريف الآيات.

الأول :المعنى العام الثابت، وهو أن الله أهلك أممًا وقرى كانت حول مخاطبي القرآن.

والثاني :تعيين كل قرية بعينها، وربطها بموضع تاريخي محدد؛ فهذا يحتاج إلى دليل مستقل، ولا يلزم من ورود اسم قرية في أقوال المفسرين أن يكون تعيينها مقطوعًا به.

والنص بـ﴿حَوْلَكُمْ﴾ له أثر ظاهر في إقامة الحجة؛ إذ ينقل الاعتبار من التاريخ المجرد إلى المجال الذي يحيط بالمخاطبين، فيجعلهم أمام آثار قريبة من عالمهم.

فكأن الخطاب يقول لهم :إن ما تسمعونه من أخبار الأمم ليس مجرد روايات للتسلية، بل هو تاريخ أمم كانت في محيطكم، ثم زالت حين كذبت رسلها.

قول الله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ التصريف هو التنويع والتكرير والتحويل من وجه إلى وجه.

ومعنى الآية :نوّعنا لهم وجوه الدلالة والحجج، وكررنا عليهم المواعظ والإنذارات، وأظهرنا لهم الحق بأساليب متعددة، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر.

ولم يقل :وذكرنا الآيات فحسب، بل قال :﴿وَصَرَّفْنَا﴾، لما في اللفظ من معنى تنويع العرض وتكرار البيان.

فالحق قد يعرض بالخبر، وبالمثل، وبالبرهان العقلي، وبالمشهد الكوني، وبالتذكير بمصائر الأمم، حتى لا يبقى للمعرض حجة في أن الطريق لم يُبيّن له.

وهذا المعنى متصل بما سبق في السورة من تنوع الأدلة:

١. الاستدلال بخلق السماوات والأرض.

٢. بيان صدق القرآن وموافقته للوحي السابق.

٣. عرض شهادة من آتاه الله علمًا من بني إسرائيل.

٤. التذكير بمصير عاد والأمم السابقة.

٥. إظهار عجز المعبودات التي اتخذها المشركون من دون الله.

فالتصريف هنا ليس مجرد تكرار للموعظة، وإنما تنويع لوجوه الحجة بحسب اختلاف أحوال المخاطبين ومداخل استدلالهم.

معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجعوا عن الكفر والتكذيب إلى الإيمان والتوحيد.

و"لعل" في خطاب الله لا تحمل معنى التردد أو عدم العلم بالعاقبة، وإنما تأتي بحسب ما يقتضيه المقام من بيان الغاية والحكمة التي من أجلها وقع تصريف الآيات.

فالإنذار غايته هداية المنذرين، وليس مجرد إظهار القدرة عليهم.

وفي هذا يظهر جانب من رحمة الله؛ إذ تتنوع وجوه البيان وتتكرر الإنذارات قبل نزول العقوبة، وتُفتح للناس أبواب الرجوع ما داموا في دار العمل.

لكن القوم قد لا ينتفعون بتنوع الحجة إذا أصروا على الإعراض، ولذلك جاء الانتقال بعد هذه الآية إلى سؤال تقريعي يكشف بطلان ما كانوا يعتمدون عليه من آلهة.

خامسًا :﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ —سقوط المعبودات عند نزول البأس

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

هذه الآية تتمة للحجة على مشركي قريش، وفيها كشف لفساد الاعتقاد الذي قامت عليه عبادة الأصنام.

فقد ذكر سبحانه إهلاك الأمم السابقة، ثم أورد سؤالًا تقريعيًّا عن الآلهة التي اتخذتها تلك الأمم من دون الله، وزعمت أنها تقربها إليه أو تشفع لها عنده.

معنى ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ "لولا" هنا للتحضيض والتوبيخ، بمعنى :فهلا نصرتهم تلك الآلهة حين نزل بهم العذاب؟

والمقصود إبطال دعوى المشركين أن معبوداتهم تملك لهم النفع أو تدفع عنهم الضر أو تشفع لهم عند الله.

والسؤال ليس طلبًا لجواب مجهول، وإنما هو سؤال تقريري يراد به إظهار عجز المعبودات؛ إذ لو كانت آلهة بحق، أو كانت تملك شيئًا من النفع المستقل، لظهر أثر ذلك عند أشد أوقات الحاجة إليها.

وقد جاء هذا الاحتجاج على طريقة إلزام الخصم بما يعتقده، فالمشركون يزعمون أن آلهتهم تقربهم إلى الله، وأنها تشفع لهم، فيقال لهم :أين كانت نصرتها حين نزل بأس الله بمن عبدها قبلكم؟

فلم تدفع عنهم العذاب، ولم تمنع عنهم الهلاك.

تحرير معنى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ هذا التركيب من المواضع التي تحتاج إلى تحرير في المعنى والإعراب.

والقربان في أصل اللغة ما يتقرب به إلى الغير طلبًا للقرب منه، ويطلق على ما يتخذ وسيلة للتقرب.

والمعنى :الآلهة التي اتخذوها من دون الله، وجعلوا عبادتها وسيلة يتقربون بها إليه، بزعمهم أنها تشفع لهم وتوصلهم إلى رضوانه.

فليس معنى الآية أن تلك المعبودات قربان مقبول عند الله، وإنما تحكي تصور عابديها، فقد اتخذوها وسائط يتوهمون أنها تقربهم إليه.

وهذا المعنى يوضحه قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [1]

وقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [2].

فالقرآن يكشف أن كثيرًا من المشركين لم يكونوا ينكرون وجود الله بالكلية، وإنما جعلوا بينه وبين أنفسهم معبودات يتقربون إليها بالعبادة، معتقدين أنها تقربهم إلى الله أو تشفع لهم عنده.

وهنا يتبين الفرق بين الإقرار بوجود الله وتوحيده في العبادة، فالإقرار بالربوبية لا يكفي ما دام العبد يصرف العبادة لغيره.

المسألة الإعرابية :موقع ﴿قُرْبَانًا آلِهَةً﴾

---

١ الزمر: ٣.

٢ يونس: ١٨.

ذكر المفسرون والنحاة أوجهًا في تركيب الآية، ومن أشهرها أن "قربانًا" يبين جهة اتخاذهم لهذه الآلهة، أي اتخذوها وسيلة للتقرب، وأن "آلهة" تبين المعبودات التي جعلوها كذلك.

وقد بحث الرازي وجوه إعراب "اتخذوا" وما يتعلق بمفعوليه، وذكر توجيهات متعددة في موقع "قربانًا" و"آلهة" [1].

والأهم في تفسير التركيب أن القربان وصف لوظيفتها المزعومة عند عابديها، لا إثبات لصفة شرعية لها؛ فالآية تحكي فساد اعتقادهم وتبطل دعوى التقرب بها.

وهذا نظير ما حكاه القرآن عن المشركين في جعل الأصنام شفعاء ووسائط، ثم نفى عنها القدرة على النفع والضر.

سادسًا: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ —انكشاف عجز المعبودات وبطلان دعوى الشفاعة

قال الله تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾. جاءت "بل" للإضراب الانتقالي، فنقلت الخطاب من السؤال التوبيخي: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ إلى بيان الحقيقة التي كشفها الواقع: أن تلك المعبودات لم تنصر عابديها، بل غابت عنهم وتركتهم حين احتاجوا إليها.

والضلال في أصل اللغة الذهاب عن الطريق والغياب عنه، ويستعمل في فقدان الاهتداء، بحسب السياق.

ومعنى ﴿ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ هنا: غابوا عنهم، ولم يجدوهم عند نزول العذاب، ولم يحصلوا منهم على نصر أو شفاعة.

وقد فسّر الطبري ذلك بأن المعبودات التي كانوا يرجون نصرها لم تجبهم ولم تغثهم حين نزل بهم بأس الله، فظهر عجزها وبطلان ما كانوا يعتقدونه فيها [2].

وهنا تظهر المفارقة بين حالين:

حال المشركين قبل نزول العذاب، حين كانوا يعتقدون أن هذه المعبودات تنفعهم وتقربهم إلى الله.

وحالهم عند نزول العذاب، حين لم يجدوا منها جوابًا ولا نصرًا ولا دفعًا لما نزل بهم.

---

١ الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحقاف، الآية الثامنة والعشرون؛ في توجيه التركيب النحوي ومعنى القربان. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الموضع نفسه.

٢ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الثامنة والعشرون؛ في معنى ضلال الآلهة عن عابديها، وتفسير الإفك والافتراء.

فقد تعلقوا بها في وقت الرخاء، ثم انكشف لهم أنها لا تملك لنفسها شيئًا، فضلًا عن أن تملك لهم نفعًا أو ضرًّا.

ولا يراد بقول الله :﴿ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أن الأصنام كانت كائنات عاقلة غادرت عابديها باختيارها؛ بل النص يصور انقطاع الصلة الموهومة بين العابد والمعبود، وغياب النفع الذي كانوا يرجونه منها.

فهي إما جمادات لا تسمع ولا تجيب، وإما معبودات لا تملك أن تدفع عن عابديها ما قضى الله به.

وهذا المعنى يتصل بقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[2].

وهذا الاتصال بين الآيتين الخامسة والثامنة والعشرين من السورة جدير بالتأمل؛ فقد بدأت السورة ببيان ضلال من يدعو غير الله، ثم ختمت هذه الوحدة ببيان انكشاف ضلال المعبودات عن عابديها.

ففي الآية الخامسة ضلال العابد عن الحق، وفي الآية الثامنة والعشرين ضلال المعبودات المزعومة عن عابديها؛ وكلاهما يكشف فساد العلاقة التي أقامها المشركون بين أنفسهم وبين ما عبدوا من دون الله.

سابعًا :﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ —انكشاف الكذب الذي أقيم عليه الشرك

قال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

الإفك هو الكذب العظيم الذي يقلب الحقيقة عن وجهها، ويصور الباطل في صورة الحق.

والافتراء هو اختلاق الكذب ونسبته إلى غير حقيقته.

---

١ فاطر: ١٤

٢ الأحقاف: ٥

والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ تحتمل أن تعود إلى حال ضلال الآلهة عن عابديها وعدم نصرها لهم، كما تحتمل أن تشير إلى مجموع الاعتقاد الذي أقاموه عليها، من دعوى الألوهية والتقريب والشفاعة.

والذي يظهر من السياق أن الإشارة تتناول دعواهم الباطلة في اتخاذ تلك المعبودات آلهة ووسائط يتقربون بها إلى الله؛ فقد انكشف بطلانها حين لم تنصرهم، ولم تدفع عنهم ما نزل بهم.

فليس المقصود مجرد وصفهم بالكذب في قول عابر، وإنما بيان أن أصل اعتقادهم في هذه المعبودات كان قائمًا على الإفك والاختلاق.

الفرق بين الإفك والافتراء

الإفك يبرز جانب قلب الحقيقة وصرفها عن وجهها، أما الافتراء فيبرز جانب اختلاق القول ونسبته إلى غير وجهه.

فالمشركون قلبوا حقيقة العبودية، فجعلوا العبادة التي هي حق لله وسيلة يتقربون بها إلى غيره، ثم اختلقوا لهذه المعبودات منزلة الشفاعة والنفع من غير سلطان من الله.

ومن هنا جاء الجمع بين قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِفْكُهُمْ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ لتتسع الدلالة إلى أصل الاعتقاد وما تفرع عنه من دعاوى.

وقد ذكر المفسرون في توجيه الإشارة أوجهًا متقاربة، وأوضحها أن ذلك هو الكذب الذي كانوا يعتقدونه في آلهتهم ويزعمون به أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم .

وهذا يلتقي مع قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[1].

فالمشكلة لم تكن مجرد اتخاذ أحجار أو أصنام، بل كانت في إنشاء تصور ديني يجعل العبادة لغير الله طريقًا مزعومًا إلى الله، ويثبت للمخلوق حقًّا في العبادة أو الشفاعة بغير إذنه.

---

١ الزمر: ٣.

أما الشفاعة في أصلها، فليست منفية على الإطلاق؛ وإنما الشفاعة حق، لكنها لا تكون إلا بإذن الله ورضاه، كما قال الله تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1]. فالآية تبطل الشفاعة المزعومة التي تجعل المعبودات وسائط مستقلة أو مستحقة للعبادة، ولا تبطل الشفاعة التي أثبتها الله لعباده المكرمين بإذنه.

---

١ البقرة: ٢٥٥.

ثامنًا :مسائل عقدية وتفسيرية مستفادة من الآيات

المسألة الأولى :هل كثرة النعم دليل على رضا الله؟

لا تدل الآية على أن التمكين في الدنيا علامة رضا الله عن صاحبه، فقد أوتيت الأمم السابقة أسبابًا عظيمة من القوة والمال والأبدان، ثم أهلكها الله حين كذبت وجحدت.

فالتمكين قد يكون نعمة وابتلاءً، ولا يصح أن يجعل مجرد حصوله ميزانًا للحكم على صلاح صاحبه.

وهذا المعنى تؤيده آيات أخرى، منها قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا﴾[1].

فليست السعة وحدها دليل إكرام، ولا التضييق وحده دليل إهانة، وإنما العبرة بما يبتلي الله به عباده، وكيف يستجيبون له.

المسألة الثانية :هل الحواس والعقل كافيان وحدهما للهداية؟

الآية تثبت أن الله جعل للإنسان أدوات الإدراك، لكنها تبين أن مجرد وجودها لا يضمن الهداية.

فالهداية تتطلب حسن الانتفاع بما وهب الله للإنسان من إدراك، والاستجابة لما جاء به الوحي، وعدم اتباع الهوى والاستكبار.

ولا يصح أن يُفهم من الآية إهدار العقل أو الحواس؛ فالقرآن نفسه يدعو إلى النظر والتدبر والاستدلال، وإنما يذم تعطيل هذه النعم عن وظيفتها.

المسألة الثالثة :ما وجه الجمع بين قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وبين هلاك الأمم؟

إن تصريف الآيات والإنذارات من رحمة الله وإقامة الحجة على عباده، وليس معناه أن كل من بلغته الحجة يرجع بالفعل.

فقد تقوم الحجة، ويستمر الإنسان في الإعراض، فيستحق الجزاء بعد البيان.

---

١ الفجر: ١٥-١٧.

وهذا من تمام عدل الله؛ إذ لا يعاقب الأمم لمجرد جهل لم تقم به الحجة، بل يبعث الرسل، ويبين الآيات، وينذر قبل المؤاخذة.

المسألة الرابعة :هل المعبودات الباطلة تنفع أصحابها يوم القيامة؟

الآية تنفي عن المعبودات التي عبدت من دون الله القدرة على نصر عابديها، وتكشف بطلان دعوى الشفاعة التي أقامها المشركون عليها.

أما الشفاعة التي أثبتها الله، فهي حق مقيد بإذنه ورضاه، ولا تناقض بين إثباتها ونفي الشفاعة المزعومة.

المسألة الخامسة :هل المقصود بالآلهة في الآية الأصنام وحدها؟

اللفظ يتناول كل ما اتخذه المشركون معبودًا من دون الله، سواء كان صنمًا أو غيره، مع اختلاف أحوال المعبودات.

فالأصنام والأوثان لا تسمع ولا تستجيب، وأما من عبد من الأنبياء والصالحين بغير رضاه، فلا يكون شريكًا لله ولا مسؤولًا عن عبادة من عبده؛ وإنما يكون الحساب على العابد الذي صرف العبادة لغير مستحقها.

تاسعًا :موقع المقطع في بناء الحجة داخل السورة

جاء هذا المقطع بعد قصة عاد ليؤدي وظيفة أوسع من مجرد إتمام خبر هلاكها.

فالمقطع السابق عرض نموذجًا تاريخيًّا لأمة كذبت رسولها، واستعجلت العذاب، ثم أهلكها الله بالريح.

أما هذا المقطع فيستخرج من القصة حججًا متعددة:

فأولًا، لا تمنح القوة والعمران أصحابها حصانة من العذاب؛ فقد كان السابقون أكثر تمكينًا من المخاطبين.

وثانيًا، لا تكفي وسائل الإدراك إذا عطلها الإنسان عن معرفة الحق، فقد جعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، لكنهم جحدوا بآياته.

وثالثًا، لم تكن الأمم السابقة محرومة من البيان؛ بل صرف الله لها الآيات ونوع الحجج والإنذارات، لعلها ترجع.

ورابعًا، لم تكن معبوداتها قادرة على إنقاذها، مع أنها اتخذتها وسائط للقرب من الله، فانكشف بطلان الاعتقاد حين نزل العذاب.

وبهذا ينتقل السياق من إثبات القدرة الإلهية على إهلاك الأمم إلى إبطال التصورات التي أقام عليها المشركون أمنهم من العقوبة.

والآيات لا تخاطب قريشًا بمجرد التهديد، بل تواجهها بحجج متتابعة :تاريخ الأمم، ونعمة الإدراك، وقيام البيان، وعجز المعبودات.

ثم إن ختام المقطع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يمهد للانتقال إلى موقف آخر من مواقف تلقي القرآن؛ إذ سيعرض السياق بعد ذلك مشهدًا مغايرًا لمشهد المكذبين، وهو استماع نفر من الجن للقرآن وإيمانهم به، ثم رجوعهم إلى قومهم منذرين.

وهذا الانتقال ليس انقطاعًا عن موضوع السورة، بل هو مقابلة بين من قامت عليه الحجة فأعرض، ومن استمع إلى الوحي فأنصت وآمن.

المقطع السادس :استماع الجن للقرآن وإيمانهم بالوحي وإنذار قومهم

تفسير الآيات التاسعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين

نص آيات المقطع: قال الله تعالى:﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أولًا :﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ —انتقال الحجة من المكذبين إلى المستجيبين

يقول تعالى لنبيه ﷺ :واذكر حين وجّهنا إليك جماعة من الجن يستمعون القرآن، فكان من شأنهم أنهم أقبلوا على الوحي مصغين، حتى إذا حضروه أنصتوا، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين.

وهذا المقطع متصل بما قبله اتصال مقابلة واعتبار؛ فقد انتهى المقطع السابق إلى بيان حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة، فكشف القرآن بطلان معبوداتهم وعجزها عن نصرتهم، ثم انتقل إلى مشهد طائفة من الجن تسمع القرآن فتؤمن به وتدعو قومها إلى اتباعه.

فبعد عرض صورة الإعراض والجحود، يعرض السياق صورة الاستجابة والإنابة، وليس اختلاف الاستجابة ناشئًا عن اختلاف الوحي؛ فالقرآن واحد، وإنما اختلفت القلوب في تلقيه.

معنى ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ الصرف في أصل اللغة تحويل الشيء عن وجه إلى وجه، ويأتي بمعنى التوجيه والإقبال والإمالة.

ومعنى ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ :وجّهنا إليك وأقبلنا بهم نحوك ليستمعوا القرآن.

وقد عبّر القرآن بالصرف، ولم يقل فقط :أرسلنا أو بعثنا؛ لما في الصرف من معنى التوجيه إلى جهة مخصوصة، فكأن الله وجّه هذه الجماعة إلى مجلس النبي ﷺ وإلى سماع الوحي الذي يتلوه.

والفعل مسند إلى الله تعالى؛ لإظهار أن هذا الاجتماع لم يكن أمرًا خارجًا عن تدبيره، بل وقع بإذنه وتقديره، وأن وصول هؤلاء إلى سماع القرآن كان من جملة ما ساقه الله من أسباب هدايتهم.

ولا يلزم من ذلك أن يكونوا قد رأوا النبي ﷺ رؤية بصرية أو خاطبوه مباشرة؛ فالآية تثبت حضورهم واستماعهم، ولا تفصل كيفية المشاهدة أو صورة المجلس.

معنى ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ النفر جماعة من الرجال، ويطلق في أصل الاستعمال على جماعة قليلة من الناس، واختلف أهل اللغة في الحد الذي ينتهي إليه عدد النفر، وليس في الآية ما يوجب ضبط عددهم.

والجن عالم من خلق الله مستتر عن أبصار البشر في أصل خلقتهم، وقد دل القرآن على وجودهم وتكليفهم، وأن منهم المؤمن والكافر، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[1]. فليس الجن جنسًا واحدًا في الاعتقاد والعمل، كما أن الإنس ليسوا كذلك.

وإسناد الاستماع إليهم هنا يدل على أنهم مخاطبون بالقرآن، وأنهم يفهمون الخطاب ويتميزون في موقفهم منه بين مستجيب ومعرض.

وقد جاء ذكرهم في هذه السورة من غير استطراد في وصف خلقتهم أو عالمهم الخفي؛ لأن المقصود ليس التعريف بتفاصيل عالم الجن، وإنما بيان أن القرآن هدى للثقلين، وأن دعوة الرسول ﷺ ليست محصورة في البشر.

وهذا المعنى تؤيده الآية التي في سورة الرحمن: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[2].

وما جاء في سورة الجن من حكاية أقوالهم بعد سماع القرآن.

ثانيًا :سبب استماع الجن ومكانه وزمانه —تحرير الروايات والجمع بينها

---

١ سورة الجن: ١١.

٢ سورة الرحمن: ٣١

وردت في قصة استماع الجن للقرآن روايات متعددة، وهي من المواضع التي ينبغي فيها التفريق بين ما ثبت في الصحيح، وما ورد في آثار التفسير والسيرة، وما وقع فيه اختلاف في تحديد عدد الجن ومكان اللقاء وصفته.

الرواية الصحيحة في صحيح مسلم

ثبت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لم يكن يعلم باستماع الجن إليه في الواقعة التي وصفها ابن عباس، وأنه لم يقرأ القرآن عليهم قراءة مقصودة، ولم يرهم.

وفي الحديث أنه ﷺ خرج في طائفة من أصحابه قاصدين سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فانطلقت طوائف منهم تبحث عن سبب ذلك، حتى مر نفر منهم بنخلة، والنبي ﷺ يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه، وقالوا إن هذا هو الذي حال بينهم وبين خبر السماء، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين[1].

وهذه الرواية مهمة في تفسير الآية؛ لأنها تثبت أن استماع أولئك النفر وقع من غير ترتيب بشري مقصود، وأن النبي ﷺ لم يكن يعلم بحضورهم في تلك الواقعة، وإنما أعلمه الله بخبرهم بعد ذلك.

كما أنها تفسر مناسبة استماعهم للقرآن؛ فقد كانوا يبحثون عن سبب التغير الذي طرأ على ما اعتادوه من استراق السمع، فقادهم البحث إلى سماع الوحي.

رواية ابن مسعود رضي الله عنه: وجاء في صحيح مسلم أيضًا، في الباب نفسه، حديث يتعلق باستماع الجن، وفيه سؤال مسروق عن الذي أعلم النبي ﷺ بحضورهم، فقال إن عبد الله بن مسعود حدثه أن شجرة أعلمته بهم[2].

بحسب ترقيم الطبعة المشار إليها في المصدر[3] .

ويفيد هذا الخبر أن للنبي ﷺ واقعة أخرى علم فيها بحضور الجن، ولا يلزم أن تكون هي عين الواقعة التي حكاها ابن عباس.

---

١ رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، حديث رقم ٤٤٩. ٣٣

٢ مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، حديث ابن عباس رقم ٤٤٩ في ترقيم الكتاب المتداول. وفيه خبر استماع نفر من الجن للقرآن بنخلة، وأن النبي ﷺ لم يعلم بحضورهم في تلك الواقعة.

٣ مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الصلاة، الباب السابق، حديث رقم ٤٥٠ في ترقيم الطبعة المشار إليها؛ وفيه خبر إعلام الشجرة النبي ﷺ بحضور الجن، عن عبد الله بن مسعود.

ومن هنا ينبغي الحذر من دمج الروايات المختلفة في قصة واحدة، ثم بناء تفاصيل قطعية على مجموعها.

اختلاف الروايات في عدد الجن

نقل الطبري عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، ونقل عن زر بن حبيش أنهم كانوا تسعة، وفي بعض الروايات تسمية زوبعة واحدًا منهم .

ولا يثبت من نص الآية عدد معين، وإنما قال الله تعالى: ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾.

فالأولى الوقوف عند هذا القدر، وعدم الجزم بعددهم، ولا بأسمائهم، ولا بأنسابهم، ما لم يثبت في ذلك خبر تقوم به الحجة.

كما وردت أخبار في أنهم كانوا من نصيبين، وأخرى في تعيين موضع الاستماع بنخلة، وهذه الأخبار متفاوتة في طرقها وتفاصيلها.

أما رواية ابن عباس الصحيحة فتذكر مرورهم بنخلة، وهي أظهر ما يعتمد عليه في تعيين موضع الواقعة التي وصفها.

هل وقعت قصة استماع الجن مرة واحدة أم مرات متعددة؟

هذه مسألة مهمة في الجمع بين الأخبار.

ففي بعض الروايات أن الاستماع وقع في طريق النبي ﷺ إلى سوق عكاظ، وفي روايات أخرى ذكر خروجه إلى الجن في شعب الحجون، ووردت أخبار تتصل بواقعة الطائف.

وقد نبّه ابن كثير إلى اختلاف الروايات، وذكر احتمال تعدد وفود الجن واستماعهم، بحيث لا يلزم أن تكون جميع الأخبار وصفًا لحادثة واحدة .

والذي يظهر أن الجمع بتعدد الوقائع ممكن، بل هو وجه معتبر عند اختلاف الزمان والكيفية والروايات، لكن لا ينبغي الجزم بأن كل خبر منها يثبت حادثة مستقلة دون تحرير أسانيده.

وعليه، فالمعتمد في تفسير الآية أن نفرًا من الجن استمعوا إلى القرآن، وآمنوا به، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، أما تفاصيل عددهم وأسمائهم وتحديد جميع المواطن التي استمعوا فيها، فلا يتوقف عليها فهم الآية.

ثالثًا :﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ –أدب تلقي الوحي

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ الحضور هو ضد الغيبة، ويأتي بمعنى الوصول إلى المكان وملاقاة الشيء.

والضمير في ﴿حَضَرُوهُ﴾ عائد إلى القرآن أو إلى مجلس تلاوته، أي فلما حضروا القرآن واستمعوا إليه قال بعضهم لبعض :أنصتوا.

والإنصات هو السكوت مع الإصغاء، وليس مجرد ترك الكلام؛ لأن المقصود منه إخلاء السمع والقلب لتلقي الكلام وفهمه.

وهذا أدق من مجرد السكوت؛ فقد يسكت الإنسان ولا يكون منصتًا، وإنما الإنصات يجمع ترك التشاغل وحسن الاستماع.

لماذا قالوا :﴿أَنْصِتُوا﴾؟ يدل هذا الأمر على أنهم أدركوا عظمة ما يسمعون، وأنهم لم يريدوا أن يفوتهم شيء من القرآن بسبب حديث بعضهم مع بعض.

وقد جاء الأمر بصيغة الجماعة؛ لأنهم كانوا جماعة يستمعون، فكان من تمام أدبهم أن يوجه بعضهم بعضًا إلى حسن التلقي.

ولم ينقل القرآن عنهم أنهم جادلوا أو اعترضوا أو سخروا، بل أول ما حكاه عنهم أنهم أنصتوا.

وهنا تظهر المقابلة مع موقف المكذبين في صدر السورة؛ فقد وصف القرآن قومًا يستكبرون عن سماعه ويقولون عنه إنه إفك مفترى، بينما وصف هؤلاء بأنهم لما حضروه قالوا :أنصتوا.

فالفرق بين الموقفين ليس في طبيعة الكلام المسموع، وإنما في موقف السامع منه.

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ القضاء هنا بمعنى الفراغ والإتمام، أي لما فرغ من تلاوة القرآن الذي استمعوا إليه.

ولم يذكر السياق مقدار ما قرئ عليهم، ولا السورة التي استمعوا إليها في هذه الواقعة، فلا يصح الجزم بأنها سورة معينة لمجرد ورود ذلك في بعض الأخبار.

وجاء النص بالفعل المبني للمجهول ﴿قُضِيَ﴾؛ لأن المقصود ليس بيان القارئ بقدر ما هو بيان انتهاء القراءة، وانتقال الجن بعد سماع الوحي إلى مرحلة التبليغ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ التولية هنا بمعنى الانصراف والرجوع، و﴿مُنْذِرِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿وَلَّوْا﴾.

أي رجعوا إلى قومهم محذرين لهم من عاقبة الكفر، وداعين إياهم إلى الإيمان بما سمعوا.

ولم يقف أثر القرآن عند حدود السامعين، بل انتقلوا به إلى غيرهم؛ فاستماعهم أفضى إلى إيمانهم، وإيمانهم أفضى إلى إنذار قومهم.

وهذا الترتيب في غاية الدلالة :سماع، ثم إنصات، ثم فهم، ثم إيمان، ثم بلاغ.

إنه تصوير لحركة الاستجابة الصحيحة للوحي، تبدأ بإقبال القلب، ولا تنتهي عند مجرد التأثر الفردي، بل تمتد إلى تبليغ الحق.

رابعًا :﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ —شهادة الجن للقرآن

بعد أن وصف الله رجوعهم منذرين، نقل مضمون إنذارهم، فقال: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

وهذا القول ليس مجرد إخبار عن سماع شيء عجيب، بل هو شهادة منهم بطبيعة ما سمعوا ومصدره وموقعه من سلسلة الوحي.

دلالة النداء :﴿يَا قَوْمَنَا﴾ ابتدؤوا خطابهم بنداء قومهم، وأضافوهم إلى أنفسهم، وفي ذلك إظهار للشفقة والحرص على هدايتهم.

فهم لم يعودوا إلى قومهم ليخبروهم بخبر غريب فحسب، وإنما رجعوا إليهم باعتبارهم أهلهم الذين يخشون عليهم عاقبة الإعراض.

وهذا من دلالة النظم؛ إذ قدموا النداء الذي يستدعي الإصغاء والقبول، ثم أتبعوه بتوكيد خبرهم.

معنى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ جاءت الجملة مؤكدة بـ"إن"، للدلالة على ثبوت الخبر عندهم.

ولم يقولوا :بلغنا أن كتابًا نزل، بل قالوا :﴿سَمِعْنَا﴾؛ لأن سماعهم كان أصل معرفتهم المباشرة بالقرآن.

وفي هذا تمييز بين الخبر الذي ينقله الإنسان عن غيره، والخبر الذي يشهد له بما أدركه بنفسه.

ثم وصفوا المسموع بأنه ﴿كِتَابًا﴾، ولم يقتصروا على تسميته كلامًا؛ لأنهم أدركوا أنه وحي منزل، ذو رسالة وهداية وتشريع، وليس كلامًا بشريًّا عارضًا.

لماذا قالوا: ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟ هذا الموضع من أهم المواضع التي تكلم فيها المفسرون. فقد خصوا موسى عليه السلام بالذكر، مع أن عيسى عليه السلام جاء بعده، وكان من أنبياء الله المرسلين.

وذكر المفسرون في ذلك أوجهًا، منها:

١. أن موسى عليه السلام صاحب كتاب مشهور، وهو التوراة، وأن الجن الذين خاطبوا قومهم كانوا يعرفون أصل الوحي والكتاب المنزل، فذكروا موسى باعتباره صاحب الشريعة الكتابية المعروفة عندهم.
٢. ومنها أن التوراة كانت أصلًا تشريعيًّا ظاهرًا في تاريخ بني إسرائيل، وأن القرآن جاء مصدقًا لما سبق من الوحي، فكان ذكر موسى مناسبًا للمقام.
٣. منها أن بعض الجن كانوا على معرفة بشريعة موسى قبل سماع القرآن، فكان استدلالهم بكتاب موسى أقرب إلى مخاطبة قومهم بما يعرفونه.

والذي يظهر أن الآية لا تقصد نفي ما جاء به عيسى عليه السلام، ولا تجعل القرآن تابعًا للتوراة من كل وجه، وإنما تشير إلى اتصال القرآن بأصل الوحي الإلهي الذي جاءت به الرسالات السابقة.

فالقرآن كتاب منزل من عند الله، وموافق لأصل ما أنزل على موسى من التوحيد والهدى، مع كونه مصدقًا لما سبقه ومهيمنًا عليه.

ولا يلزم من ذكر موسى أن يكون هؤلاء الجن لم يعرفوا غير التوراة، كما لا يلزم أن يكونوا جميعًا من أتباعه قبل إسلامهم؛ فذلك مما لا يحسمه النص.

خامسًا: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ —وحدة الوحي واختلاف الشرائع

قال تعالى في وصف الكتاب الذي سمعوه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

التصديق هو الإقرار بصحة الشيء وموافقته للحق، والمراد أن القرآن يصدق ما سبقه من الكتب المنزلة في أصول الوحي والحق الذي جاءت به الرسل.

و"ما بين يديه" تعبير قرآني يراد به ما تقدمه من الكتب والرسالات، وقد جاء في مواضع متعددة بهذا المعنى.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1].

فالتصديق لا يعني أن جميع الشرائع السابقة متطابقة في أحكامها التفصيلية، وإنما يعني اتفاقها في أصل مصدرها الإلهي، وفي أصول العقيدة والتوحيد والهداية، مع اختلاف بعض الأحكام والشرائع بحسب ما اقتضته حكمة الله.

ومن ثم فإن شهادة الجن هنا شهادة بوحدة مصدر الرسالات، وأن القرآن ليس قولًا مبتدعًا من عند البشر، وإنما هو امتداد للوحي الإلهي.

وهذا المعنى له أثر في الحجة على مشركي قريش؛ فإن هؤلاء الجن الذين لم يكونوا من قوم النبي ﷺ عرفوا القرآن من خلال سماعه، وأدركوا صلته بالوحي السابق، بينما ظل المكذبون من قومه يجادلون في مصدره ويصفونه بالافتراء.

لماذا وصفوه بالتصديق قبل ذكر الهداية؟

قالوا: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. فقدموا وصف التصديق، ثم أتبعوه بوصف الهداية.

والوجه في ذلك أن التصديق يبين موقع القرآن من الوحي السابق، أما الهداية فتبين أثره في المكلفين.

فهو من جهة المصدر متصل بالرسالات الإلهية، ومن جهة الأثر يهدي من اتبعه إلى الحق والطريق المستقيم.

وهذا الترتيب يجمع بين إثبات أصالة القرآن واتصال مصدره، وبيان وظيفته في حياة الناس.

سادسًا: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ —القرآن هداية في الاعتقاد والعمل

---

[1] سورة المائدة: ٤٨.

الحق هو الثابت الذي لا يتطرق إليه الباطل، ويأتي في هذا السياق شاملًا للحق في الاعتقاد والقول والعمل.

أما الطريق المستقيم فهو الطريق الذي لا اعوجاج فيه، والمراد به سبيل الله الذي يوصل إلى رضوانه.

وقد جمع الجن بين الحق والطريق المستقيم؛ لأن الحق قد يراد به مضمون الاعتقاد الصحيح، والطريق المستقيم يراد به المنهج الذي يسلكه الإنسان في عبادته وسلوكه.

فليس القرآن كتاب معلومات مجردة، وإنما هو كتاب هداية ينقل الإنسان من الباطل إلى الحق، ومن الانحراف إلى الاستقامة.

والتعدية بحرف ﴿إِلَى﴾ في الموضعين تفيد أن القرآن يرشد إلى الغاية والطريق معًا؛ فهو يعرف الإنسان ما الحق، ثم يدلّه على السبيل الذي يسلكه لتحقيق مقتضاه.

وقد تكرر وصف القرآن بالهداية في مواضع كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]. والهداية هنا ليست مجرد إرشاد نظري، بل تشمل بيان الاعتقاد الصحيح، والأحكام التي تنظم عبادة الإنسان وعلاقته بربه وبالخلق.

ومن هنا يظهر أن الجن لم يكتفوا بإثبات أن القرآن كتاب منزل، وإنما أدركوا وظيفته العملية، فانتقلوا في خطابهم إلى دعوة قومهم إلى إجابة الرسول والإيمان بالوحي.

سابعًا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ —الانتقال من الشهادة إلى الدعوة

قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾. بعد أن شهدوا للقرآن بأنه كتاب منزل، ومصدق للوحي السابق، وهادٍ إلى الحق، انتقلوا إلى النتيجة العملية التي تقتضيها هذه الشهادة، فقالوا لقومهم :أجيبوا داعي الله وآمنوا به.

وهذا انتقال من الخبر إلى الطلب، ومن وصف الحق إلى بيان الواجب تجاهه.

---

١ سورة الإسراء: ٩

٢ سورة البقرة: ٢.

معنى ﴿أَجِيبُوا﴾ الإجابة هي القبول والاستجابة لما يدعو إليه الداعي .والمقصود هنا الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، بالإيمان بالله وتوحيده، وتصديق رسوله واتباع ما جاء به.

ولم يقولوا :اسمعوا داعي الله فقط، لأن السماع قد يقع من غير قبول، كما وقع من المكذبين الذين سمعوا القرآن ثم أعرضوا عنه.

أما الإجابة فتتضمن القبول والانقياد والاستجابة لمقتضى الدعوة.

وهذا يلتقي مع ما سبق من قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.

فالإنصات كان بداية حسن التلقي، والإجابة هي ثمرته العملية. **ومعنى ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾** داعي الله هو رسول الله محمد ﷺ، لأنه يدعو الخلق إلى الله بإذنه وأمره.

وإضافته إلى الله إضافة تشريف وبيان لمصدر الدعوة وغايتها؛ فهو لا يدعو الناس إلى حظ شخصي أو سلطان دنيوي، وإنما يدعوهم إلى عبادة الله وحده.

وقد جاء النص بـ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ بدل "الرسول" لإبراز جهة الدعوة ومقصودها، فالمطلوب ليس مجرد الاعتراف بشخص الرسول، بل الاستجابة لله الذي أرسله.

وهذا المعنى يتصل بقول الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1].

فالنبي ﷺ داعية إلى الله، لا إلى نفسه، واتباعه من مقتضيات الإيمان بالله وطاعته.

لماذا عطف الإيمان على الإجابة؟

قالوا :﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾. الإجابة أوسع من مجرد التصديق الذهني؛ فهي تتضمن قبول الدعوة والانقياد لها، ثم جاء الأمر بالإيمان لتعيين أصل الاستجابة وأساسها.

وقيل :إن العطف للتأكيد وبيان المقصود من الإجابة، فلا يراد به أمران منفصلان، وإنما يراد إجابة الرسول بالإيمان به واتباعه.

والذي يظهر أن في الجمع بينهما بيانًا للقول والعمل :قبول الدعوة من جهة الاستجابة، وتحقيق أصلها من جهة الإيمان.

---

١ الأحزاب: ٤٦.

مرجع الضمير في ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ الأقرب أن الضمير يعود إلى الله تعالى، باعتبار أن المقصود بالإيمان هو الإيمان بالله الذي دعا إليه رسوله.

وقيل :يعود إلى داعي الله، أي آمنوا بالرسول وصدقوه.

ولا تعارض بين المعنيين من جهة أصل الدعوة؛ فالإيمان بالله يتضمن تصديق رسوله، وتصديق الرسول يقتضي الإيمان بالله الذي أرسله.

لكن من جهة اتصال الضمير بلفظ ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يحتمل عوده إلى الداعي، ومن جهة المقصد العام للدعوة يحتمل عوده إلى الله، فلا ينبغي تحميل الآية خلافًا لا يترتب عليه اختلاف في أصل المعنى.

ثامنًا :﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ –ثمرة الاستجابة

بعد الأمر بالإجابة والإيمان، ذكر الجن لقومهم ما يترتب على ذلك من المغفرة والنجاة.

وهذا من حسن دعوتهم؛ إذ لم يقتصروا على الأمر، بل قرنوه بذكر ما يرجى من فضل الله لمن استجاب.

معنى ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عن المؤاخذة به.

وجاءت "من"في الآية، وقد اختلف المفسرون في توجيهها: فقيل :هي للتبعيض، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، ويحمل ذلك على ما يتصل بحقوق العباد أو ما لا يدخل في وعد المغفرة المذكور هنا.

وقيل :هي زائدة من جهة الصناعة النحوية، والمعنى :يغفر لكم ذنوبكم، وهذا وجه معروف في استعمال "من" بعد أفعال النفي والإثبات في بعض التراكيب، على اختلاف توجيه النحاة.

وقيل :هي لابتداء الغاية، أي يغفر لكم ما سبق من ذنوبكم عند دخولكم في الإيمان.

والذي ينبغي تقريره أن الآية وعد بالمغفرة لمن أجاب داعي الله وآمن به، ولا يصح جعلها وحدها دليلًا على أن كل ذنب بعينه يدخل في المغفرة دون قيد، أو على إسقاط حقوق العباد؛ فهذه مسائل لها أدلتها وتفصيلها في نصوص الوعد والوعيد.

معنى ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الإجارة هي الحماية والوقاية من المكروه.

والمعنى :يحفظكم الله من عذاب مؤلم، وهو عذاب الآخرة لمن مات على الكفر.

وجمعوا بين المغفرة والإجارة؛ لأن المغفرة تتعلق بإزالة أثر الذنب، والإجارة تتعلق بالوقاية من العذاب المترتب عليه.

وهذا من تمام النعمة؛ إذ لا يقتصر فضل الله على محو ما مضى من الذنوب، بل يتفضل على عباده بالنجاة من العذاب.

والنص بـ﴿يُجِرْكُمْ﴾ يفيد أن النجاة ليست بقوة المخلوق ولا بمجرد انتسابه إلى قوم أو جماعة، وإنما هي بجوار الله وحفظه.

وهنا يظهر أثر الإيمان في مصير الجن كما يظهر في مصير الإنس؛ فالتكليف واحد من جهة وجوب الإيمان بالله واتباع رسوله، وإن اختلفت طبيعة الخلقة وأحوال العالمين.

تاسعًا :﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ —تقرير عموم القدرة والجزاء

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

بعد أن ذكر الجن وعد الله للمستجيبين بالمغفرة والنجاة، انتقلوا إلى بيان عاقبة المعرضين، حتى لا يفهم قومهم أن الدعوة مجرد اختيار لا تترتب عليه مسؤولية.

وهذا من تمام الإنذار؛ إذ جمعوا بين الترغيب في الاستجابة والترهيب من الإعراض.

معنى ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي من لم يستجب لدعوة رسول الله ﷺ، ولم يؤمن بالله الذي يدعو إليه، وأصر على الكفر والإعراض.

والنص بـ"مَنْ" الشرطية يفيد العموم، فلا يختص الوعيد بقوم دون قوم، ولا بجنس دون جنس، بل يتناول كل من بلغه خطاب الرسول وقامت عليه الحجة ثم أعرض عنه.

وهذا يؤكد أن رسالة النبي ﷺ عامة، وأن الجن الذين سمعوا القرآن فهموا عموم الدعوة، فلم يحصروا أثرها في أنفسهم، بل دعوا قومهم إلى الاستجابة لها.

معنى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الإعجاز هنا بمعنى الإفلات والامتناع عن قدرة الله.

أي ليس من لم يجب داعي الله بقادر على أن يفلت من الله، أو يعجزه عن إدراكه ومجازاته، ولو انتقل في أرجاء الأرض واتخذ من أسباب المنعة ما اتخذ.

والنص بـ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل كل ما يتوهم الإنسان أنه موضع يحتمي به من سلطان الله. فالأرض كلها ملك لله، ولا يخرج الإنسان من قدرته بالخروج من موضع إلى موضع.

وهذا المعنى يتصل بقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ العنكبوت :٢٢.

فالمعنى واحد في تقرير أن أحدًا لا يستطيع الإفلات من حكم الله، ولا يملك أن يدفع عنه ما أراد الله به.

معنى ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي ليس للمعرض عن دعوة الله من دونه أولياء يحمونه من عذابه، أو ينصرونه حين ينزل به بأسه.

والأولياء هنا جمع ولي، وهو الناصر والمتولي لأمر غيره.

وجاء النص بـ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ليشمل كل ما يتخذه الإنسان من دون الله ملجأ أو معتمدًا أو معبودًا.

وهذا متصل مباشرة بما سبق في الآية الثامنة والعشرين من السورة، حين كشف الله عجز الآلهة التي اتخذتها الأمم السابقة قربانًا، فقال:

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾. ففي الموضع السابق بيان عجز الأولياء المزعومين عن نصرة عابديهم، وفي هذا الموضع بيان أنه ليس للمعرض عن داعي الله أولياء ينصرونه من دون الله.

وبذلك تتكرر الحجة في سياقين متصلين :بطلان الاعتماد على المعبودات الباطلة، واستحالة الإفلات من سلطان الله.

معنى ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى من لا يجيب داعي الله. والضلال هو العدول عن طريق الحق، والمبين هو الظاهر الواضح.

ووصف الضلال بالمبين يقرر أن ترك دعوة الله بعد ظهور حجتها ليس طريقًا مستقيمًا، ولا موقفًا محايدًا بين الإيمان والكفر، وإنما هو انحراف عن سبيل النجاة.

والآية تختم ببيان حقيقة حال المعرضين، بعد أن ذكرت عاقبتهم من جهة القدرة والولاية؛ فهم لا يعجزون الله، ولا يجدون من دونه ناصرًا، وهم في ضلال ظاهر.

وهذا ترتيب في غاية الإحكام :نفي القدرة على الإفلات، ثم نفي وجود الناصر، ثم الحكم على حالهم بالضلال.

عاشرًا :المسائل العقدية المتعلقة بالجن وإيمانهم وتكليفهم

لما كان هذا المقطع يتناول إيمان الجن وسماعهم القرآن ودعوتهم قومهم، فإنه يتضمن جملة من المسائل العقدية التي يحسن تحريرها من نصوص الوحي، دون التوسع فيما لم يثبت.

المسألة الأولى :الجن عالم مكلف، وليسوا مجرد مخلوقات غيبية لا تتعلق بها أحكام التكليف

دلت الآيات على أن الجن يسمعون القرآن ويفهمونه ويؤمنون به، ويدعون قومهم إلى الاستجابة، ويخافون عليهم من العذاب.

وهذا يدل على أنهم مكلفون بالإيمان والطاعة، وأنهم مخاطبون برسالة النبي ﷺ.

قال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

فالعبادة غاية خلق الفريقين، والتكليف يشملهم بحسب ما يناسب خلقتهم وقدرتهم.

المسألة الثانية :هل رسالة النبي ﷺ عامة للجن والإنس؟

نعم، تدل آيات السورة دلالة ظاهرة على عموم رسالته ﷺ للجن والإنس.

فالجن استمعوا إلى القرآن، ثم دعوا قومهم إلى إجابة داعي الله، وهذا لا يكون إلا باعتبارهم مخاطبين برسالته.

---

١ سورة الجن: ١٣.

٢ سورة الذاريات: ٥٦.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[2].

وتدل آيات الجن على أن عموم الرسالة لا يختص بالبشر، بل يدخل فيه الجن كذلك.

المسألة الثالثة :هل الجن منهم المؤمن والكافر؟ نعم، وهذا من صريح القرآن.

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[3].

فمنهم المسلم ومنهم الجائر عن الحق، ومنهم الصالح ومنهم دون ذلك.

ولا يصح تعميم وصف واحد على جميع الجن؛ لأن القرآن أثبت اختلافهم في الاعتقاد والعمل.

المسألة الرابعة :هل للجن ثواب وعقاب؟

نعم، تدل الآيات على أن لهم مغفرة ونجاة لمن آمن، ووعيدًا وعذابًا لمن كفر وأعرض.

قال تعالى في هذا المقطع: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقال في المقابل: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

فهذه الآيات صريحة في ترتب الجزاء على موقف الجن من دعوة الله.

أما تفاصيل كيفية ثوابهم في الجنة، وما يخصهم من أحوال الآخرة، فقد وقع فيها خلاف بين أهل العلم، ولا ينبغي الجزم بتفاصيل لم يدل عليها نص صحيح صريح.

والمتيقن أنهم مكلفون، وأن مؤمنهم يثاب وكافرهم يعاقب، وأن الله لا يظلم أحدًا.

المسألة الخامسة :هل يجوز الاستعانة بالجن أو الاستعاذة بهم؟

لا تدل هذه الآيات على جواز الاستعانة بالجن في الأمور الغيبية أو الاستعاذة بهم، وإنما تدل على أنهم عباد لله مخاطبون بالوحي.

---

١ سورة الأعراف: ١٥٨.

٢ سورة سبأ: ٢٨.

٣ سورة الجن: ١٤-١٥.

وقد ذم القرآن استعاذة الإنس بالجن، فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

فالمشروع أن تكون الاستعاذة بالله، لا بالمخلوقات الغائبة التي لا يملك الإنسان لها سلطانًا.

ولا يصح أن يُجعل إيمان الجن بالقرآن ذريعة إلى فتح باب الدجل أو ادعاء التواصل معهم أو تصديق كل ما ينسب إليهم.

المسألة السادسة :هل الجن يرون النبي ﷺ ويسمعون القرآن؟

الآية تثبت سماعهم القرآن وحضورهم عند تلاوته، لكنها لا تفصل كيفية رؤيتهم للنبي ﷺ.

والرواية الصحيحة عن ابن عباس في صحيح مسلم تنص على أن النبي ﷺ لم يرهم في تلك الواقعة، ولم يقرأ عليهم قراءة مقصودة، وإنما استمعوا إليه وهو يصلي.

أما الروايات الأخرى فتذكر أحوالًا مختلفة من استماع الجن وحضورهم، ولا يجوز تعميم وصف واقعة معينة على جميع الوقائع.

فالواجب الوقوف عند ما ثبت، وعدم التوسع في أخبار عالم الغيب بغير دليل.

الحادي عشر :التحرير النَّظمي والبياني للمقطع

يتضح من تأمل الآيات الأربع أن بناء المقطع قائم على حركة متدرجة، تنتقل من وقوع الاستماع إلى ظهور أثره في السلوك والدعوة.

ففي الآية التاسعة والعشرين يبدأ المشهد بالفعل الإلهي:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾. ثم ينتقل إلى فعل الجن: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾.

ثم إلى أدبهم في التلقي: ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾. ثم إلى أثر السماع: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

وفي الآية الثلاثين ينقل القرآن مضمون شهادتهم للكتاب، فيصفون مصدره وصلته بالوحي السابق وأثره في الهداية. وفي الآية الحادية والثلاثين ينتقلون من الشهادة إلى الدعوة، فيأمرون قومهم بإجابة داعي الله، ويذكرون وعد المغفرة والنجاة.

---

[1] سورة الجن: ٦.

وفي الآية الثانية والثلاثين ينتقلون إلى الوعيد، فيبينون أن من أعرض لا يستطيع الإفلات من قدرة الله، ولا يجد وليًّا ينصره من دونه. وهذا التدرج يجمع بين البيان والإيمان والدعوة والجزاء.

ومن لطائف النظم أن الآيات بدأت بضمير الغيبة في وصف الجن، ثم نقلت أقوالهم مباشرة بصيغة المتكلم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

فانتقل السياق من رواية المشهد إلى نقل شهادتهم، حتى كأن القارئ يسمع خطابهم لقومهم.

كما تكرر النداء ﴿يَا قَوْمَنَا﴾ في الآيتين الثلاثين والحادية والثلاثين، وهو تكرار له وظيفة؛ ففي الأولى يفتتحون الشهادة بالكتاب الذي سمعوه، وفي الثانية يفتتحون الدعوة إلى الاستجابة العملية له.

فالأولى تعريف بالحق، والثانية دعوة إلى اتباعه.

ويلاحظ كذلك أن الآية التاسعة والعشرين ختمت بوصفهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾، ثم جاءت الآيات التالية تفصل مضمون الإنذار :تعريف بالوحي، ودعوة إلى الإيمان، ووعد بالمغفرة، ووعيد بالإعراض.

فالوصف الإجمالي في نهاية الآية الأولى فُصّل في الآيات الثلاث التي بعدها.

أما ختام المقطع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فهو مقابلة لاهتداء الجن الذين سمعوا القرآن، وإظهار أن الموقف من الوحي هو الفارق بين طريق الرشد وطريق الضلال.

وهكذا لا يكون ذكر الجن في السورة استطرادًا في أخبار عالم غيبي، بل يأتي شاهدًا على صدق القرآن، وعموم الرسالة، وقيام الحجة على من يعرض عن الوحي.

فالجن الذين لم يكونوا من قوم النبي ﷺ، ولم تكن بينهم وبينه رابطة نسب أو مصلحة دنيوية، استمعوا إلى القرآن فشهدوا له بالوحي والهدى، ثم رجعوا إلى قومهم داعين ومنذرين.

وهذه مقابلة بليغة مع المكذبين الذين عرفوا النبي ﷺ، وعرفوا صدقه، ثم استكبروا عن قبول دعوته.

المقطع السابع والأخير :تثبيت الرسول ﷺ والصبر على تكذيب المكذبين واليقين بوعد الله

الآيات :الثالثة والثلاثون إلى الخامسة والثلاثون

نص آيات المقطع: قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أولًا :قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ –الاستدلال بالخلق الأول على البعث

لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة موقف الجن من القرآن، وإقرارهم بصدق الرسول ﷺ، وما يترتب على الاستجابة لدعوته من المغفرة والنجاة، ثم ذكر حال المعرضين الذين لا يملكون الإفلات من قدرة الله، عاد في هذه الآية إلى أصل الحجة التي يدور عليها جانب كبير من السورة، وهو إثبات البعث وإقامة الدليل على إمكانه ووقوعه.

فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، وهو استفهام إنكاري توبيخي، يراد به حمل المخاطبين على النظر فيما يعلمونه من خلق السماوات والأرض، وما يقتضيه ذلك من الإقرار بكمال قدرة الله.

والرؤية هنا ليست مجرد رؤية العين، وإنما هي رؤية العلم والاعتبار؛ لأن خلق السماوات والأرض أمر مشهود بآثاره، معلوم بما أقام الله عليه من الدلائل، والمقصود أن يتجاوز الإنسان إدراك وجود هذا الخلق إلى إدراك ما يدل عليه من قدرة الخالق.

والآية متصلة اتصالًا ظاهرًا بالآية التاسعة والعشرين التي ذكرت استماع الجن للقرآن وإيمانهم به؛ فقد ظهر في موقفهم أنهم لم يقفوا عند مجرد السماع، بل انتقلوا إلى فهم حقيقة الوحي والهداية التي جاء بها .ثم عاد الخطاب إلى المكذبين من الإنس، الذين سبق أن ذكر الله موقفهم من البعث في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ

خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾[1]، فكأن الآية تعود إلى أصل الشبهة التي ظهرت في ذلك الموقف : استبعاد إخراج الإنسان بعد موته، مع أن من خلق السماوات والأرض ابتداءً لا يعجزه إحياء الموتى.

معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خص سبحانه السماوات والأرض بالذكر؛ لأنهما أعظم ما يشاهده الإنسان من خلق الله، وأوسع ما يستدل به على عظمة القدرة والإبداع.

فالذي أنشأ هذا العالم العظيم، وأقامه على ما فيه من إحكام وتقدير، لا يعجزه أن يعيد الإنسان بعد موته؛ وليس المراد مجرد المقارنة بين عظم الأجسام وصغر الإنسان، وإنما المراد الاستدلال بالخلق الأول على إمكان الإعادة، مع أن قدرة الله لا تتفاوت في متعلقها من جهة العجز والمشقة؛ فليس خلق العظيم أشق عليه من خلق الحقير، ولا الإعادة أهون عليه من جهة عجز أو تعب، وإنما جميع ذلك داخل في عموم قدرته.

وقد قرر القرآن هذا الدليل في مواضع أخرى، فقال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3]. فأصل الحجة أن من ثبتت له القدرة على الإنشاء ابتداءً لا يستحيل في حقه الإحياء بعد الموت.

معنى ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ العيّ هو العجز والكلال وعدم الاهتداء إلى وجه الأمر، ويقال : عيي بالأمر إذا لم يستطع إحكامه أو عجز عن تدبيره. والمعنى :أن الله تعالى خلق السماوات والأرض ولم يصبه عجز أو تعب أو ضعف عن إنشائهما، والنص هنا أدق من مجرد القول إنه خلقهما؛ لأن ذكر نفي العي يواجه توهمًا قد ينشأ في ذهن من يقيس أفعال الخالق على أفعال المخلوقين، فيظن أن الخلق العظيم قد يستلزم نفاد القدرة أو حصول المشقة؛ فنفى سبحانه ذلك نفيًا صريحًا.

---

١ سورة الأحقاف: ١٧.

٢ سورة غافر: ٥٧.

٣ سورة الروم: ٢٧.

وهذا من تنزيه الله عن صفات النقص، فالخلق فعل الله، وقدرته كاملة لا يلحقها عجز، ولا يعتريها تعب، ولا تحتاج إلى معين.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا اللفظ أن الله كان معرضًا لاحتمال العجز ثم نفاه، بل هو نفي لصفة النقص عن ذاته سبحانه، وإظهار لكمال قدرته.

وقد أورد الطبري في تفسير الآية معنى العجز والكلال في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، وبيّن أن المقصود إقامة الحجة على المنكرين للبعث من خلال خلق السماوات والأرض[1] .

التحليل النحوي والبلاغي لقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِقَادِرٍ﴾ دخلت الباء على خبر "أن" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِقَادِرٍ﴾، وهي باء زائدة من جهة الصناعة النحوية، مؤكدة لمعنى القدرة في سياق الاستفهام الإنكاري.

والتقدير :أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى؟

وقد ذكر الطبري اختلاف النحويين في توجيه دخول الباء، وذكر أوجهًا في تخريجها، من أشهرها زيادتها في الخبر للتوكيد[2] .

وفي هذا التركيب قوة في تقرير الحجة؛ إذ لم يأت الكلام في صورة خبر مجرد عن القدرة، بل جاء في سياق استفهام ينكر على المخاطبين غفلتهم عن لازم ما يشاهدونه من الخلق.

فالمخاطب لا تنقصه الشواهد على القدرة، وإنما ينقصه الاعتبار بما تدل عليه تلك الشواهد.

وهنا يظهر الفرق بين العلم بالشيء والانتفاع بدلالته؛ فقد يعلم الإنسان أن الله خلق السماوات والأرض، لكنه لا يستحضر ما يقتضيه ذلك من إمكان البعث، فيبقى أسير تصوره المحدود عن الموت والحياة.

دلالة قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ الإحياء هو إعادة الحياة إلى من فقدها.

والمراد إحياء الموتى يوم القيامة وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء.

---

١ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الثالثة والثلاثون؛ في معنى العيّ والقدرة على إحياء الموتى. وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الموضع نفسه.

٢ الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الأحقاف، الآية الثالثة والثلاثون؛ في توجيه الباء في ﴿بِقَادِرٍ﴾، وينظر :القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الموضع نفسه .

والموت في تصور المكذبين نهاية لا رجعة بعدها، ولذلك استبعدوا أن يعود الإنسان إلى الحياة بعد أن يصير ترابًا وعظامًا.

فرد القرآن هذا الاستبعاد إلى أصل الخلق، وأقام الحجة عليهم بما هو أعظم في نظرهم من إعادة الإنسان.

وفي الآية تقرير لأصل عقدي عظيم، هو الإيمان بالبعث بعد الموت، وأنه واقع لا محالة، وليس مجرد إمكان عقلي لا يتعلق به وعد أو وعيد.

ويلاحظ أن الآية لم تكتف بإثبات القدرة على الإحياء، بل انتقلت مباشرة إلى تقرير عموم القدرة، فقال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهذا الانتقال من الدليل إلى التصريح بالنتيجة يجعل الحجة تامة في نفسها.

معنى ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ "بلى"حرف جواب يرد به النفي، ويأتي هنا جوابًا عن مضمون الاستفهام الإنكاري المتضمن للنفي.

فالمعنى :بلى، إن الله قادر على إحياء الموتى، بل هو سبحانه قادر على كل شيء.

ولم يقتصر الجواب على إثبات القدرة على البعث، بل جاء بالتعميم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لأن البعث فرد من أفراد القدرة الإلهية، وليس أمرًا خارجًا عن مقتضاها.

وإسناد القدرة إلى الله على هذا الوجه إثبات لصفة من صفاته العظيمة، على ما يليق بجلاله، من غير تشبيه بقدرة المخلوقين أو تكييف لكيفيتها.

وفي هذا دليل على أن البعث ليس متوقفًا على معرفة البشر بكيفية إعادة الأجساد، ولا على إدراكهم لطريقة وقوعها؛ فعدم العلم بالكيفية لا يستلزم استحالة الفعل، ولا ينفي كمال قدرة الفاعل.

والذي يظهر من سياق الآية أن الله أراد إبطال أصل استبعاد البعث، لا الدخول في تفصيل كيفية الإعادة؛ لأن المقام مقام إقامة الحجة على أصل الإمكان والوقوع.

وبهذا تعود السورة إلى قضية الابن الجاحد التي وردت في الآيات السابقة، فتقابل بين من يتوهم أن الموت يمنع الإعادة، وبين حقيقة الخلق التي تدل على أن قدرة الله لا يعجزها شيء.

ثانيًا :قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ﴾ —انتقال المكذبين من الإنكار إلى الإقرار

بعد تقرير قدرة الله على إحياء الموتى، انتقل السياق من إقامة الحجة في الدنيا إلى تصوير مآل المكذبين في الآخرة؛ فلم يعد الكلام في إمكان البعث، بل في مشهد وقوعه، ولم يعد الإنكار متعلقًا بخبر غائب، بل بحقيقة يشاهدونها ويعانونها.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ والمراد يوم القيامة، حين يعرض الكافرون على نار جهنم، فيرون ما كانوا ينكرونه، ويقفون على حقيقة الوعيد الذي جاءتهم به الرسل؛ والنص بـ﴿يُعْرَضُ﴾ يصور انتقالهم إلى موقف لا يملكون فيه دفعًا ولا اختيارًا؛ فهم الذين كانوا يعرضون عن الحق في الدنيا، فإذا بهم يعرضون على النار.

وهذه مقابلة بليغة بين الإعراض عن الوحي والإعراض على النار؛ فقد أعرضوا عن الدليل حين كان الانتفاع به ممكنًا، فأصبحوا في موقف لا يملكون فيه إلا الاعتراف بما أنكروه.

معنى ﴿عَلَى النَّارِ﴾ جاء النص بـ"على" للدلالة على العرض على النار وإظهارها لهم، بما يتضمنه من قرب المعاينة وشدة الموقف.

وليس المقصود أن الآية تفصل كيفية دخولهم النار أو ترتيب مراحل العذاب، وإنما تصور عرضهم عليها ووقوفهم في مشهد المواجهة معها.

وقد ورد في القرآن تصوير مشاهد أخرى لهذا المعنى، منها قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الأنعام :٢٧.

ففي الموضعين ينتقل المكذبون إلى مشاهدة الحقيقة التي أنكروها، ويتبين لهم ما كانوا يجحدونه.

معنى ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ﴾ هذا استفهام تقريري توبيخي، يواجههم بحقيقة العذاب الذي كانوا يكذبون به.

والإشارة بـ﴿هَـٰذَا﴾ إلى ما يشاهدونه من العذاب، وما يتصل به من تحقق الوعد والوعيد. أما وصفه بأنه الحق، فمعناه أنه واقع ثابت لا ريب فيه، وليس وهمًا أو تخويفًا كاذبًا كما زعموا في الدنيا.

وقد جاء الاستفهام في صورة سؤال، وليس الغرض منه طلب العلم منهم؛ فالله سبحانه عالم بحالهم، وإنما الغرض إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالإقرار، وهذا من أشد صور التقريع؛ لأن المكذب الذي كان ينازع في الحق حين كان غائبًا عنه، أصبح مطالبًا بالإقرار به حين عاينه.

معنى ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ جاء جوابهم بـ"بلى" لإثبات ما سبق أن أنكروه.

وزادوا القسم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾، تأكيدًا لإقرارهم، وإظهارًا لاعترافهم بأن ما يشاهدونه حق، وهذا الإقرار ليس إيمانًا نافعًا في مقام التكليف، بل هو اعتراف اضطراري بعد انكشاف الغيب ومعاينة الجزاء.

فالفرق كبير بين الإيمان بالغيب حين تقوم الحجة وتبقى فرصة الاستجابة، وبين الإقرار بعد زوال زمن العمل وانكشاف الحقيقة.

وقد حكى القرآن عن المكذبين في مواضع أخرى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد المعاينة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

لكن هذا التمني لا يعيد إليهم زمن التكليف، ولا يمحو ما قدموه من الكفر والإعراض.

وقد فسر الطبري هذا الإقرار بأنه اعتراف منهم بأن العذاب الذي يعاينونه هو الحق الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، ثم جاء الأمر بذوق العذاب جزاءً على جحودهم .٤٢

معنى ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الفاء في ﴿فَذُوقُوا﴾ تفيد ترتيب الجزاء على ما سبق من الإقرار، أي لما ثبت عندكم أن هذا العذاب حق، ولم يعد لكم مجال للإنكار، فذوقوا ما كنتم تجحدونه، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم، ثم يستعمل في مطلق مباشرة الشيء والإحساس به، ولا سيما ما يشتد أثره في النفس.

---

١ سورة الأنعام: ٢٧.

واختير هنا لفظ الذوق لما فيه من تصوير مباشرة العذاب والإحاطة بأثره، حتى كأن العذاب شيء يباشرونه ولا يستطيعون الانفكاك عنه.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فالباء للسببية، أي بسبب كفركم وإنكاركم الحق.

وجاء الفعل بصيغة المضارع الدال على الاستمرار في تركيب ﴿كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ لأن الكفر لم يكن منهم موقفًا عابرًا، بل كان وصفًا مستمرًا استقروا عليه، وواجهوا به دعوة الرسل.

والآية لا تجعل العذاب جزاء مجرد عدم المعرفة، وإنما تربطه بالكفر والجحود بعد قيام الحجة، وهو ما يتفق مع عدل الله تعالى في مؤاخذة العباد.

العلاقة بين الآيتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين

في الآية الثالثة والثلاثين أقام الله الدليل على البعث، وفي الرابعة والثلاثين عرض المشهد الذي تتحقق فيه نتيجة هذا البعث.

فالأولى تقيم الحجة على إمكان الإحياء، والثانية تصور عاقبة من أنكر الإحياء والجزاء.

وفي الأولى خطاب للعقل ليعتبر بالخلق، وفي الثانية خطاب للوجدان ليشهد عاقبة التكذيب.

وهذا الانتقال من الدليل إلى المشهد من إحكام النظم؛ إذ لا يترك القرآن الحجة في مستوى التجريد، بل يكشف مآل الموقف منها.

والذي كان غيبًا يصدق به المؤمنون أصبح حقيقة يعاينها المكذبون، ولكن بعد فوات زمن الانتفاع.

ثالثًا :قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ —الصبر في طريق الدعوة والاقتداء بالرسل

لما عرض سبحانه مآل المكذبين، وأظهر أن إنكارهم لا يغير من حقيقة الوعد والوعيد شيئًا، انتقل إلى خطاب رسوله ﷺ، فأمره بالصبر، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه.

وهذا انتقال من بيان عاقبة المكذبين إلى تثبيت حامل الرسالة في مواجهتهم؛ لأن معرفة مآل التكذيب لا تعني أن العذاب ينزل فورًا، ولا أن الداعية يستغني عن الصبر في طريق البلاغ.

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾. **معنى الصبر في الآية**

الصبر هو حبس النفس على ما تقتضيه طاعة الله، ومنعها من الجزع والتسخط، والثبات على الحق مع احتمال ما يعترض طريقه من مشقة وأذى.

والأمر بالصبر هنا ليس أمرًا مجردًا باحتمال الأذى، وإنما هو توجيه إلى الثبات على مقتضيات الرسالة، والاستمرار في الدعوة، وعدم الانكسار أمام تكذيب المكذبين أو استعجال نتائج الدعوة.

وقد واجه النبي ﷺ في دعوته ألوانًا من التكذيب والاستهزاء والأذى، كما واجه الرسل قبله مثل ذلك، فجاء الأمر بالاقتداء بأصحاب العزم من الرسل، لاستخراج معنى الصبر من تاريخ النبوة نفسه.

وفي اختيار الفاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ اتصال بما سبق، فكأن المعنى :إذا كان هؤلاء سيعاينون صدق ما جئتهم به، وكان الله قادرًا على إنفاذ وعده ووعيده، فاثبت على دعوتك ولا يحملنك تكذيبهم على الجزع أو استعجال العذاب.

فالصبر هنا ثمرة اليقين بوعد الله، وليس مجرد احتمال نفسي للمشقة.

معنى ﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾ العزم هو قوة الإرادة وثباتها على الأمر، ويقال :عزم على الشيء إذا عقد قلبه عليه ومضى فيه.

وأولو العزم هم أصحاب الثبات والقوة في حمل أعباء الرسالة ومواجهة أقوامهم، وقد اختلف المفسرون في المراد بهم في هذه الآية.

وأقوال العلماء في ذلك ترجع إلى اتجاهات رئيسة:

- **الاتجاه الأول :أنهم جميع الرسل:** ذهب بعض أهل العلم إلى أن جميع الرسل أولوا عزم؛ لأن الله لم يرسل رسولًا إلا وكان ذا عزم وصبر وثبات على تبليغ الرسالة.

واستدل أصحاب هذا القول بعموم وصف الرسالة، وبأن العزم من مقتضيات حمل الوحي، فلا يكاد ينفك عنه نبي وقد روي هذا المعنى عن ابن زيد عند الطبري، إذ ذهب إلى أن جميع الرسل أصحاب عزم، وأن الأمر للنبي ﷺ أن يصبر كما صبروا [1].

---

١ الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة والثلاثون؛ في القول بأن جميع الرسل أولوا عزم.

❖ **الاتجاه الثاني :أنهم طائفة مخصوصة من الرسل.**

وهو القول المشهور عند جمهور المفسرين، أنهم خمسة:

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

واستدلوا بذكر هؤلاء الخمسة في مواضع قرآنية جمعت بينهم في سياق الميثاق والوصية بالدين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[2].

وهذا التخصيص له وجه قوي من جهة جمع القرآن لهؤلاء الأنبياء في سياق الميثاق والوصية بالدين، وما عُرف عنهم من عظم الابتلاء والصبر في تبليغ الرسالات.

وقد ذكر البغوي والطبري هذا القول، ونقلا عن بعض السلف تعيين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ويكون محمد ﷺ خامسهم[3].

❖ **الاتجاه الثالث :أقوال أخرى في تعيينهم.**

وردت أقوال أخرى في تعيين أولي العزم، فقيل :هم الرسل الذين أُمروا بالقتال، وقيل :من أظهروا الصبر على أذى أقوامهم، وقيل :غير ذلك من التعيينات التي نقلتها كتب التفسير.

لكن هذه الأقوال لا تستند جميعها إلى دليل قرآني صريح يحدد الأسماء، وبعضها مبني على أوصاف عامة في الأنبياء أو على روايات تفسيرية متفاوتة.

الترجيح في المراد بأولي العزم: الذي يظهر رجحانه أن المراد بأولي العزم هنا الرسل أصحاب المرتبة الخاصة في الثبات على الرسالة والصبر على عظيم الابتلاء، وأن أشهر تعيين لهم هو الخمسة المذكورون في آيتي الأحزاب والشورى؛ ووجه الترجيح أن القرآن جمع هؤلاء في سياق الميثاق والوصية بالدين، وأن الأمر للنبي ﷺ بالصبر كصبرهم يتناسب مع مقام تثبيته في مواجهة تكذيب قومه.

---

١١ سورة الأحزاب: ٧.

٢ سورة الشورى: ١٣.

٣ البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة والثلاثون؛ في تعيين أولي العزم بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

كما أن وصف أولي العزم لا يستلزم نفي العزم عن غيرهم من الأنبياء، وإنما يدل على مزية في المقام الذي سيق فيه الكلام.

دلالة قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ الكاف للتشبيه، والمعنى :اصبر صبرًا مماثلًا لصبر أولي العزم من الرسل؛ ولم يقل :اصبر كما صبر الناس، أو كما يصبر المؤمنون، بل خص الرسل بالذكر؛ لأنهم أكمل الناس في حمل أعباء الدعوة، وأشدهم تعرضًا لابتلاء المكذبين.

وفي التشبيه توجيه للنبي ﷺ إلى الاقتداء بمن سبقه في مقام الرسالة، وأن الطريق الذي يسلكه ليس طريقًا لم يسبق إليه أحد، بل هو امتداد لطريق الأنبياء.

كما أن في هذا النص تسلية له؛ لأن ما يلقاه من التكذيب لا يدل على نقص في دعوته أو ضعف في حجته، وإنما هو مما جرت به سنة الله في ابتلاء رسله.

وقد عرض القرآن صبر الأنبياء في مواضع متعددة، ومن ذلك صبر نوح عليه السلام في دعوته الطويلة لقومه، وصبر إبراهيم في مواجهة قومه، وصبر موسى أمام فرعون وبني إسرائيل، وصبر عيسى أمام تكذيب بني إسرائيل.

فليس المقصود من الأمر أن يقتصر النبي ﷺ على معرفة أخبارهم، بل أن يجعل صبرهم ميزانًا لسلوكه في مواجهة ما يلقاه.

هل الأمر بالصبر يقتضي أن النبي ﷺ لم يكن صابرًا؟

لا؛ فالأمر لا يدل على انتفاء الصفة قبل ورود الخطاب، وإنما يأتي لتثبيتها واستدامتها والزيادة فيها، والأنبياء أكمل الناس صبرًا، لكنهم بشر يجري عليهم الابتلاء، ويحتاجون إلى تثبيت الله وتأييده، وقد أمر الله نبيه ﷺ بالصبر في مواضع كثيرة، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[1]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2].

فالصبر المأمور به هو الثبات على مقتضى الرسالة، مع الاستعانة بالله وانتظار حكمه، لا مجرد احتمال الأذى دون عمل.

رابعًا :قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ —تأخير العقوبة لا يعني غياب الوعيد

---

١ سورة النحل: ١٢٧.

٢ سورة الطور: ٤٨.

عطف سبحانه النهي عن الاستعجال على الأمر بالصبر، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

والمراد :لا تستعجل نزول العذاب على المكذبين، ولا تطلب تعجيل العقوبة بهم قبل أن يأتي الوقت الذي قضاه الله.

وهذا النهي متصل بما سبق في السورة من مواقف المكذبين الذين كانوا يستعجلون العذاب استهزاءً، كما في قول قوم هود: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

وكذلك ما حكاه الله عن المكذبين في مواضع أخرى من طلبهم تعجيل العذاب.

فهم يستعجلون العذاب على وجه الاستهزاء والتكذيب، وقد يقع في نفس الداعية من شدة ما يلقى من قومه ما يحمله على تمني تعجيل العقوبة بهم، فجاء الخطاب بضبط هذا المقام، وأمر النبي ﷺ بالصبر وترك الاستعجال، **ودلالة اللام في ﴿لَهُمْ﴾** اللام متعلقة بالاستعجال، والمعنى :لا تستعجل لهم العذاب، أي لا تطلب تعجيله من أجلهم؛ كما أن النص لا يعني أن النبي ﷺ كان متصفًا بالجزع أو مخالفًا لما أمره الله به، وإنما هو توجيه إلهي إلى أكمل المواقف في التعامل مع المكذبين.

فقد يكون تأخير العذاب لحكمة يعلمها الله، ومن ذلك إمهالهم، وإقامة الحجة عليهم، وإتاحة المجال لمن شاء الله له الهداية، أو لحكمة أخرى لا يحيط بها علم العباد.

ولا يلزم من تأخير العقوبة رضا الله عن الكفر، ولا يدل على أن الوعيد لن يقع.

الصلة بين الأمر بالصبر والنهي عن الاستعجال: الصبر يضبط موقف الداعية من الأذى الذي يصيبه، والنهي عن الاستعجال يضبط موقفه من توقيت الجزاء الذي يستحقه المكذبون.

فقد يجمع الإنسان بين احتمال الأذى وبين استعجال زوال خصمه، لكن القرآن يوجه رسوله ﷺ إلى مقام أعلى :الثبات على الدعوة، وترك تدبير مواعيد العقوبات لله تعالى.

وفي ذلك إظهار لافتقار الرسول إلى ربه في أمر الرسالة، وأن وظيفته البلاغ والإنذار، أما الحكم في العباد وإنفاذ الوعيد فإلى الله وحده، وأن معنى النهي ألا يستعجل النبي ﷺ حلول العقوبة بقومه، وأن العذاب إذا جاء جاء في وقته الذي قضاه الله [2].

---

١ سورة الأحقاف: ٢٢.

٢ الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة والثلاثون؛ في معنى النهي عن استعجال العذاب. وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الموضع نفسه.

خامسًا :قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ — انكشاف قصر الدنيا عند معاينة الآخرة

بعد الأمر بالصبر والنهي عن استعجال العذاب، ذكر سبحانه حال المكذبين حين يرون ما وعدوا به، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾.

وهذا تصوير بالغ التأثير لتغير إدراك الإنسان للزمن عند معاينة الآخرة.

فالمكذبون الذين طال عليهم زمن الدعوة، واستبعدوا البعث، وأعرضوا عن الإنذار، إذا رأوا ما يوعدون به من العذاب، بدا لهم أن مدة بقائهم في الدنيا لم تكن إلا ساعة قصيرة.

وليس المقصود أن أعمارهم في الحقيقة كانت ساعة، وإنما المقصود بيان قصر الدنيا في نظرهم عند انكشاف الآخرة، وأن ما مضى من أعمارهم مهما طال يصير ضئيلًا عند مقارنة أهوال ذلك اليوم.

معنى ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ الموصول في ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ يشمل ما توعدهم الله به من العذاب والجزاء، سواء كان ذلك عند قيام الساعة أو عند معاينة العذاب في الآخرة.

وقد جاء النص بالرؤية؛ لأن ما كان خبرًا غيبيًا يتحول إلى مشاهدة لا يستطيعون دفعها أو إنكارها؛ ففي الدنيا كان الوعد يسمعونه فيكذبون به، أما يوم القيامة فيرونه رأي العين.

وهذا يتصل مباشرة بقوله في الآية السابقة: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؛ فالمشهدان متكاملان : معاينة العذاب، ثم الاعتراف بحقيقته، ثم استصغار مدة الحياة التي مضت في الدنيا. **معنى ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾** واللبث هو المكث والإقامة؛ والساعة هنا جزء من الزمن، ولا يلزم أن تكون ساعة محددة بمقدار زمني حسابي معروف، وإنما المقصود تصوير قصر المدة.

وقد ذكر المفسرون في المراد باللبث أوجهًا:

١. فقيل :المراد مدة إقامتهم في الدنيا.

٢. وقيل :يشمل مدة بقائهم في الدنيا والبرزخ.

٣. وقيل :المقصود ما يجدونه من قصر المدة عند معاينة العذاب، حتى كأن ما مضى من حياتهم لم يكن إلا زمنًا يسيرًا.

والذي يظهر من السياق أن المراد الأساسي هو استقصار مدة الحياة الماضية عند مشاهدة ما كانوا يوعدون به، سواء حمل ذلك على الدنيا وحدها أو ضم إليه البرزخ؛ إذ لا يتوقف أصل المعنى على تعيين حدود المدة؛ وقد ربط الطبري ذلك بشدة ما ينزل بهم من العذاب، وأنه يجعل مدة لبثهم في الدنيا كأنها ساعة من نهار .كما أشار ابن كثير إلى استقصار مدة الدنيا والبرزخ عند معاينة شدائد القيامة[1].

لماذا قال :﴿سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾؟ اختير النهار لأنه زمن مشهود عند الناس، يعرفون امتداده وتقلب أجزائه، والساعة منه جزء محدود.

وفي النص تقريب لمعنى القصر، فلا يحتاج المخاطب إلى تصور زمن غيبي مجهول، بل يستحضر جزءًا يسيرًا من نهار مألوف.

وفي هذا تصوير للمفارقة بين امتداد العمر في شعور الإنسان وهو يعيشه، وقصره في نظره عندما تنكشف له حقيقة المصير.

فالإنسان قد يظن أن أمامه زمنًا طويلًا، ويؤخر التوبة والعمل، ويعامل الدنيا كأنها الغاية، فإذا حضر الموت أو قامت القيامة أدرك أن ما مضى كان أقصر مما كان يتصور.

وهذه الدلالة من لوازم المعنى التفسيري، أما تنزيلها على سلوك الإنسان في كل عصر فهو من باب الاعتبار والتدبر، لا من معنى الآية الحصري.

الصلة بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ النهي عن الاستعجال يبين أن العقوبة تأتي في وقتها، ثم يذكر ما يكشفه ذلك الوقت من حقيقة الدنيا في أعين المكذبين.

فلا ينبغي للنبي ﷺ أن يحمل أذى قومه على استعجال العذاب، لأن الزمن الذي يراه المكذبون طويلًا سينكشف لهم يوم القيامة أنه يسير.

وهكذا يعالج السياق مسألة الزمن من جهتين :زمن الإمهال في الدنيا، وقصر الحياة عند معاينة الآخرة.

سادسًا :قول الله تعالى: ﴿بَلَاغٌ﴾ —وظيفة الوحي وإقامة الحجة

---

[1] الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة والثلاثون؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الموضع نفسه، في معنى استقصار مدة اللبث عند معاينة العذاب.

هذه الكلمة من المواضع التي تعددت فيها أوجه التفسير والإعراب، وينبغي تحريرها؛ لأن موقعها من نظم الآية يؤثر في توجيه المعنى.

قال الله تعالى: ﴿بَلَاغٌ﴾. والبلاغ في أصل اللغة هو الوصول إلى الغاية، ومنه إبلاغ الرسالة، أي إيصالها إلى من خوطب بها. وقد وردت في تفسيرها اتجاهات: **الوجه الأول :أن المراد أن هذا القرآن بلاغ من الله إلى الناس.**

أي إن ما تقدم من الوعد والوعيد، وما اشتمل عليه القرآن من بيان الحق، هو بلاغ يصل إلى المخاطبين، تقوم به الحجة عليهم.

وهذا الوجه ينسجم مع كون السورة خطابًا في التوحيد والبعث والرسالة، ومع ختامها الذي يربط الهلاك بالفسق بعد قيام البيان.

الوجه الثاني :أن البلاغ وصف للمدة المذكورة.

أي أن لبثهم في الدنيا كان مدة بلاغ، بمعنى مدة محدودة تنتهي إلى الأجل المقدر.

وعلى هذا يكون التقدير :لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، ذلك لبث بلاغ، أي مقدار من الزمن يبلغون به أجلهم الذي قدره الله.

الوجه الثالث :أن البلاغ بمعنى الكفاية وما يحصل به الوصول إلى الغاية.

وهو معنى لغوي قريب من أصل المادة والذي يظهر أن حمل ﴿بَلَاغٌ﴾ على معنى أن القرآن وما تضمنه من الوعد والوعيد بيان كافٍ لإقامة الحجة، وجه قوي يتناسب مع ختام السورة.

فالسورة بدأت بإثبات تنزيل الكتاب، ثم عرضت حجج المكذبين، وأقامت الأدلة على التوحيد والبعث، وذكرت مصارع الأمم، وشهادة الجن، ثم ختمت بتقرير أن هذا الوحي بلاغ من الله إلى عباده.

سابعًا :قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ —الهلاك ثمرة الخروج عن أمر الله : ختم الله السورة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وهذه خاتمة تتجاوز مجرد الوعيد إلى تقرير سنة من سنن الله في الجزاء؛ فالهلاك الذي يكون عقوبة على التكذيب والإعراض لا يقع إلا على من استحقه بفسقه وخروجه عن أمر الله.

معنى ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ الاستفهام هنا إنكاري تقريري، يفيد قصر الهلاك المستحق على أهله، وليس سؤالًا ينتظر جوابًا.

والهلاك في هذا السياق يحتمل الهلاك بالعذاب والعقوبة، ويدخل فيه هلاك الآخرة الذي هو أعظم وأدوم.

وقد ورد لفظ الهلاك في القرآن بمعان متعددة بحسب السياق؛ فقد يراد به الموت، وقد يراد به الاستئصال، وقد يراد به العذاب والخسران، والمراد هنا الهلاك الذي يقع جزاءً على الكفر والفسق، بدلالة اتصال الآية بقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. ثم جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ تذييلًا يقرر أن العقوبة ليست ظلمًا، وإنما تقع على من استحقها.

معنى ﴿الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المراد القوم الذين خرجوا عن أمر الله بالتكذيب والجحود، كما يدل عليه سياق السورة من بدايتها إلى نهايتها.

لماذا ختمت السورة بوصف الفسق؟ لأن الفسق يجمع المعاني التي عرضتها السورة في مواقف المكذبين؛ فقد بدأوا بإنكار التوحيد، ثم جادلوا في الوحي، ووصفوا القرآن بالإفك، واستكبروا عن اتباع الحق، ورفضوا الاعتبار بمصارع الأمم، وأعرضوا عن دعوة الرسول ﷺ، فليس هلاكهم لمجرد أنهم لم يدركوا حقيقة الوحي، وإنما لأنهم خرجوا عن مقتضى الحق بعد ظهوره، واستمروا على التكذيب والإعراض.

وفي هذا دلالة على عدل الله سبحانه؛ فإنه لا يهلك قومًا بغير حجة، ولا يعذبهم ظلمًا، وإنما يجازيهم بما استقروا عليه من الكفر والفسق.

وهذا يتصل بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١] فالآية تقرر أصلًا في العدل الإلهي، وهو أن العقوبة لا تكون إلا بعد قيام الحجة بحسب ما تقتضيه أحكام الله وحكمته.

هل في الآية دلالة على سعة رحمة الله؟ نعم، من جهة أن الهلاك ليس وصفًا عامًا لجميع الناس، وإنما هو جزاء يستحقه أهل الفسق والتكذيب.

---

[١] سورة الإسراء: ١٥.

وقد أشار بعض المفسرين إلى أن الآية من آيات الرجاء، لأن تعليق الهلاك بالفسق يدل على أن طريق النجاة مفتوح لمن رجع إلى الله وآمن به.

لكن لا يصح أن يُفهم منها أن كل من لم يكن كافرًا فهو ناجٍ من كل عذاب، لأن النصوص الشرعية الأخرى بينت تفاوت أهل المعاصي في الجزاء، وقررت أن الله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق حكمته وعدله.

فالآية في سياقها تتحدث عن الهلاك الذي يكون جزاءً على الكفر والفسق، لا عن جميع أحكام الجزاء تفصيلًا، وقد عدها بعض العلماء عدها من أقوى آيات الرجاء في القرآن [1].

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الأحقاف، الآية الخامسة والثلاثون؛ في دلالة الآية على الرجاء وسعة رحمة الله. وينظر: مجمع البيان، الموضع نفسه.

المرحلة الختامية :الوحدة الموضوعية والنظم، والمقاصد والهدايات، والخاتمة التفسيرية الجامعة

أولًا :الوحدة الموضوعية والنظم في سورة الأحقاف

المحور المركزي والوحدة الموضوعية للسورة: تدور سورة الأحقاف حول قضية كبرى، هي : **إثبات صدق الوحي والرسالة، وإقامة الحجة على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، وبيان عاقبة الإعراض عن الحق، وتثبيت الرسول ﷺ أمام التكذيب حتى يبلغ رسالة ربه.**

وليست هذه القضية مجموعة موضوعات متجاورة، بل هي بناء متكامل تتساند أجزاؤه؛ إذ يبدأ بإثبات أن القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، ثم يواجه الشرك بأدلة الخلق والملك، ويكشف فساد عبادة ما لا يسمع ولا يستجيب، ثم ينتقل إلى موقف المكذبين من الوحي، ويقيم عليهم الحجة بشهادة أهل العلم بالكتاب، وباستجابة الجن للقرآن، ثم يعرض شواهد التاريخ في قوم عاد والأمم المجاورة، ويختم بتقرير البعث والجزاء والأمر بالصبر.

ومن هنا يظهر أن السورة لا تكتفي بإثبات أن القرآن حق، بل تعالج مواقف الإنسان من هذا الحق :فمنهم من يستكبر عنه، ومنهم من يعرض، ومنهم من يجحد بعد ظهور الحجة، ومنهم من ينصت فيؤمن ويعود منذرًا قومه، كما في خبر الجن.

وهذا التنوع في الاستجابة هو أحد المفاتيح المهمة لفهم وحدة السورة؛ فالقرآن واحد، والحجة قائمة، لكن الناس يتفاوتون في استقبالها، وتكون عاقبة كل فريق بحسب موقفه منها.

والذي يجمع ذلك كله أن الإيمان بالوحي ليس قضية نظرية منفصلة عن الحياة والمصير، وإنما هو موقف تتفرع عنه حقيقة العبادة، ومسؤولية الإنسان، ومصير الأمم، والنجاة أو الهلاك.

التدرج في بناء الحجة من الافتتاح إلى الخاتمة: يبدأ بناء السورة بقول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فالمطلع يقرر مصدر القرآن قبل عرض اعتراضات المكذبين عليه .وفي هذا التقديم تأسيس للمرجعية التي ستعود إليها جميع الحجج اللاحقة؛ فما دام الكتاب تنزيلًا من الله، فلا تكون معارضة المشركين له حاكمة على صدقه، ولا يكون استكبارهم دليلًا على بطلانه.

ثم ينتقل الخطاب إلى دليل التوحيد من خلق السماوات والأرض، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهذا الدليل يربط بين الخلق والحكمة والأجل؛ فالعالم ليس عبثًا، ووجود الإنسان ليس غايةً تنتهي بالموت، بل وراء الحياة أجل وحساب.

ثم تأتي الحجة على بطلان الشرك، ببيان أن ما يدعونه من دون الله لا يملك شيئًا، ولا يستجيب لهم، ولا يعلم دعاءهم، ولا يستطيع أن يشفع لهم أو ينصرهم.

وهكذا تتدرج الحجة من إثبات مصدر الوحي إلى إثبات وحدانية المعبود، ثم إلى إبطال ما يناقضها من عبادة غير الله.

وبعد إقامة هذه الأصول ينتقل السياق إلى مواجهة موقف المكذبين من القرآن نفسه، فيقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهنا تظهر المشكلة في موقفهم :فالحق يأتيهم بينًا، لكنهم لا يقابلونه بالنظر والإنصاف، وإنما يصفونه بما يصرف الناس عنه.

ثم تتوالى الحجج التي تكشف فساد هذا الموقف؛ فيؤمر الرسول ﷺ أن يبين أنه ليس بدعًا من الرسل، وأن وظيفته اتباع الوحي والإنذار، ويأتي ذكر شهادة شاهد من بني إسرائيل على أصل الرسالة، ثم تعرض السورة نموذجًا آخر للاستجابة في قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾. وهذا الانتقال بالغ الدلالة؛ فالذين استكبروا عن القرآن من الإنس يقابلهم نفر من الجن أنصتوا له، وعرفوا صدقه، ثم عادوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان.

ثم يوسع السياق دائرة الاعتبار من الأفراد إلى الأمم، فيعرض قوم عاد، وما كانوا عليه من القوة والتمكين، وكيف لم تغن عنهم قوتهم حين أعرضوا عن الحق.

وبعد ذكر عاد، يذكر ما حول المخاطبين من القرى التي أهلكها الله، ويبين أن ما اتخذوه من آلهة لم ينصرهم حين جاء أمر الله.

وهكذا تتحول الحجة من النظر في الكون إلى النظر في التاريخ؛ فالخلق يدل على القدرة، والتاريخ يشهد على إنفاذ الحكم، وكلاهما يرد المكذب إلى حقيقة ضعفه وافتقاره.

ثم يعود السياق إلى دليل الخلق والبعث في ختام السورة، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

فتعود الحجة التي افتتحت بها السورة في تقرير الخلق بالحق والأجل المسمى، لكن بعد أن مر الخطاب بمواقف المكذبين، وشواهد الأمم، واستجابة الجن.

ثم يعرض مشهد الحساب، ويأتي الأمر بالصبر، والنهي عن استعجال العذاب، وتقرير قصر الدنيا عند معاينة الآخرة، حتى تنتهي السورة إلى قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وبذلك تنتهي الحجة إلى بيان مسؤولية الإنسان عن موقفه من الوحي، وأن تأخير الجزاء لا يلغي وقوعه، وأن الله لا يظلم أحدًا.

ترتيب المقاطع وتكاملها: تنتظم السورة في حركة متدرجة يمكن إدراكها من خلال مقاطعها السبعة:

- **المقطع الأول :الآيات الأولى إلى السادسة:** وهو تأسيس أصول الحجة :مصدر الوحي، وخلق السماوات والأرض بالحق، وبطلان عبادة ما سوى الله، وعجز المعبودات المزعومة عن الاستجابة لعابديها.
- **المقطع الثاني :الآيات السابعة إلى الثانية عشرة:** ينقل الخطاب من بيان حقيقة الوحي إلى مواقف الناس منه؛ فيعرض التكذيب والاستكبار، ويقرر أن الرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل، ويقيم الحجة بشهادة شاهد من بني إسرائيل، ويكشف تفاوت الناس في قبول الحق.
- **المقطع الثالث :الآيات الثالثة عشرة إلى العشرين:** ينتقل من الموقف من الرسالة إلى أثر الإيمان في حياة الإنسان ومصيره؛ فيذكر الاستقامة والبشارة، ثم بر الوالدين ودعاء الإنسان الصالح، ويقابل ذلك بنموذج الجحود والعقوق، وينتهي إلى مشهد جزاء الفريقين.
- **المقطع الرابع :الآيات الحادية والعشرون إلى الخامسة والعشرين:** يقدم شاهدًا تاريخيًّا على سنة الله في المكذبين، من خلال قصة هود وقوم عاد، ويكشف كيف انقلب ما ظنوه بشارة بالمطر إلى ريح تحمل العذاب.

❖ **المقطع الخامس :الآيات السادسة والعشرون إلى الثامنة والعشرين:** يوسع دائرة الاعتبار، فيذكر ما أوتيته الأمم من وسائل القوة والإدراك، وكيف لم تغن عنها حين جحدت، ثم يقرر بطلان الآلهة التي اتخذتها من دون الله.

❖ **المقطع السادس :الآيات التاسعة والعشرون إلى الثانية والثلاثين:** يعرض نموذجًا مضادًّا للتكذيب، وهو استماع الجن للقرآن وإيمانهم به، ثم عودتهم إلى قومهم منذرين .وبذلك يبرز أن الحجة قد تنفذ إلى قلب من ينصت لها، مهما اختلف جنس المخاطب.

❖ **المقطع السابع :الآيات الثالثة والثلاثون إلى الخامسة والثلاثين:** يجمع أصول السورة في دليل البعث، ومشهد الحساب، والأمر بالصبر، والنهي عن الاستعجال، وتقرير أن البلاغ قد قامت به الحجة، وأن الهلاك إنما يكون لأهل الفسق.

وهذه المقاطع ليست وحدات مستقلة؛ فكل مقطع يضيف وجهًا من وجوه الحجة، ويهيئ لما بعده .فالاعتبار بعاد يتصل بما قبله من بيان موقف المكذبين، وذكر الجن يتصل بما قبله من تفاوت الناس في الاستجابة، وخاتمة السورة تعود إلى أصول التوحيد والبعث التي تأسس عليها المطلع.

❖ **مناسبة المطلع للخاتمة:** من أبرز وجوه النظم في سورة الأحقاف أن خاتمتها تعود إلى المعنى الذي افتتحت به، ولكن بعد استيفاء وجوه الاستدلال عليه.

فالمطلع يقول: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ والخاتمة تقول: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وبين الطرفين تتجلى صلة الوحي بالقدرة والحكمة والجزاء.

فذكر العزيز في المطلع يناسب ما تضمنته السورة من بيان قدرة الله وقهره للأمم التي اغترت بقوتها، وذكر الحكيم يناسب تقرير أن الخلق لم يقع عبثًا، وأن الجزاء يجري على مقتضى الحكمة والعدل.

ثم إن افتتاح السورة بإنزال الكتاب يقابله في خاتمتها تقرير البلاغ؛ فالوحي نزل، والرسالة بلغت، والحجة قامت، ولم يبق بعد البيان إلا موقف الإنسان واختياره.

ومن جهة أخرى، فإن ذكر الخلق والأجل المسمى في مطلع السورة يقابله في خاتمتها إثبات إحياء الموتى؛ فالأجل ليس نهاية الوجود، وإنما هو انتقال إلى دار الجزاء.

وهذا التناسب يجعل الخاتمة جوابًا عن الأسئلة التي أثارها المطلع :من أين جاء هذا الكتاب؟ ولماذا خلق الله الخلق؟ وإلى أين ينتهي أمر المكذبين؟

فجاءت السورة كلها بيانًا لهذه الحقائق، ثم ختمت بتقرير أن الهلاك إنما يلحق أهل الفسق.

التناسب بين الآيات والمقاطع: يتجلى التناسب في السورة من خلال روابط متعددة، أهمها:

١. **الصلة بين الخلق والتوحيد:** بدأت السورة بذكر خلق السماوات والأرض بالحق، ثم أعقبت ذلك بإبطال عبادة ما يدعى من دون الله.

وهذا اتصال ظاهر؛ لأن من خلق الكون وملكه ودبر أمره هو المستحق للعبادة، أما ما لا يخلق، ولا يملك ولا يسمع ولا يستجيب فلا يستحق شيئًا من العبادة.

فالدليل الكوني ليس غرضًا مستقلًّا عن قضية التوحيد، بل هو مقدمة لإثباتها.

٢. **الصلة بين الوحي والمسؤولية الإنسانية:** بعد تقرير صدق الكتاب، عرضت السورة نماذج من مواقف الناس منه :المكذب المستكبر، والمؤمن المستقيم، والابن الجاحد، والجن الذين استمعوا فآمنوا.

وهذا التنوع يكشف أن الوحي ليس خبرًا مجردًا، بل خطاب يترتب عليه موقف، ويظهر أثر ذلك الموقف في الاعتقاد والسلوك والمصير.

٣. **الصلة بين الأسرة والآخرة:** ذكر بر الوالدين في أثناء السورة ليس خروجًا عن مقصدها العقدي؛ لأن الإيمان الذي يقرره القرآن لا ينفصل عن آثار العبودية في حياة الإنسان.

ففي السياق نفسه الذي يذكر فيه دعاء الإنسان بالصلاح والتوبة وقبول العمل، يذكر نموذج الابن الذي يرفض الإيمان ويجحد البعث.

وبذلك يتصل صلاح الاعتقاد بصلاح العمل، وتتصل الاستقامة بحقوق الله بحقوق الوالدين.

٤. **الصلة بين عاد والأمم المجاورة:** ذكر قوم عاد ثم القرى التي حول المخاطبين ينقل الحجة من التاريخ البعيد إلى الشواهد الأقرب إلى علمهم ومشاهدتهم.

فليس المقصود مجرد حكاية مصير أمة سابقة، بل إقامة العبرة من خلال آثار الأمم التي عرف المخاطبون خبرها أو رأوا آثارها.

٥. **الصلة بين استماع الجن وموقف المشركين:** من أعمق المقابلات في السورة أن قومًا من الإنس استكبروا عن القرآن ووصفوه بالإفك، بينما استمع نفر من الجن إليه وأنصتوا، ثم آمنوا به ودعوا قومهم إلى اتباعه.

وهذا التقابل لا يجعل جنسًا أفضل من جنس بمجرد الانتماء، وإنما يبين أن معيار النجاة هو الاستجابة للحق.

فالاستكبار يحجب صاحبه عن الانتفاع بالحجة، والإنصات والإنصاف يفتحان له باب الهداية.

❖ **التقابل والتكرار وأثرهما في بناء المعنى:** من خصائص السورة أنها تعرض المعنى الواحد في صور متقابلة، فلا تكتفي ببيان الحق، بل تظهر أثر الإيمان به أو الإعراض عنه.

١. **مقابلة المؤمن بالمكذب:** في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. تقابلهم السورة بالذين قالوا لوالديهم: ﴿أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾.

فالأول جمع بين الإقرار بالربوبية والاستقامة، والثاني جمع بين جحود البعث والعقوق والاستكبار.

وليس التقابل بين شخصين فحسب، بل بين مسارين :مسار يقود إلى الاستقامة والطمأنينة، ومسار يقود إلى الخسران والندم.

٢. **مقابلة المستكبر بالمنصت:** المستكبر يسمع الآيات ثم يردها بالافتراء، أما الجن فيقول بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾.

والإنصات هنا ليس مجرد سكوت، وإنما هو إقبال على تلقي الخطاب حتى يتبين معناه.

وهذا التقابل يبين أن الانتفاع بالوحي يحتاج إلى سلامة القصد، كما يحتاج إلى صحة الحجة.

٣. **مقابلة القوة بالعجز:** عرضت السورة قوم عاد وقد بلغوا من التمكين والقوة ما لم تبلغه قريش، ثم قررت أن قوتهم لم تغن عنهم شيئًا.

وهذا يرد على توهم أن التمكين المادي دليل على صحة الطريق، أو أن امتلاك أسباب القوة يضمن النجاة من حكم الله.

٤. **مقابلة الاستعجال بالصبر:** المكذبون يستعجلون العذاب استهزاءً، والرسول ﷺ يؤمر بالصبر وعدم استعجال نزوله.

وهذه مقابلة تكشف الفرق بين موقف من ينكر الوعد فلا يبالي به، وموقف من يؤمن به لكنه يرد توقيت وقوعه إلى الله.

٥. **تكرار مادة الحجة والإنذار:** تتكرر في السورة معاني الوعد والوعيد، والإنذار، والبعث، والجزاء، لا على سبيل إعادة الكلام بلا فائدة، وإنما من خلال تنويع الأدلة والمشاهد.

فتارة تأتي الحجة من الخلق، وتارة من التاريخ، وتارة من استجابة الجن، وتارة من مشهد القيامة.

وهذا التنويع يوسع دائرة الاعتبار، ويخاطب وجوهًا متعددة من إدراك الإنسان.

❖ **الانتقال بين الخطابات والضمائر:** من وجوه النظم في السورة انتقال الخطاب بين الغيبة والخطاب المباشر، وبين الحديث عن المكذبين ومواجهة الرسول ﷺ بتوجيهات خاصة.

ففي المطلع يقرر الله حقيقة الكتاب والخلق، ثم يعرض أحوال الذين كفروا بصيغة الغيبة، ثم يوجه الخطاب إلى النبي ﷺ:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾. ثم يتكرر الأمر له بالقول في مواضع أخرى، وهو ما يجعل الرسول ﷺ في مقام المبلغ الذي يقيم الحجة على قومه، لا في مقام من يملك هدايتهم أو إنزال العذاب بهم.

ثم ينتقل السياق إلى خطاب الإنسان في شأن والديه، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾. وهذا انتقال من خطاب الجماعة المكذبة إلى خطاب الإنسان من حيث هو إنسان، ليقرر أن الاستجابة للوحي تشمل علاقاته الأسرية وأعماله.

ثم يأتي الخطاب القصصي في خبر عاد، ويعود إلى الرسول ﷺ في قصة الجن، ثم ينتهي إلى أمره بالصبر.

وهذا التنوع في الخطاب يحفظ وحدة المقصد مع تعدد جهات النظر؛ فالسورة تخاطب العقل بالدليل، والضمير بالتذكير، والنفس بالوعد والوعيد، والرسول بالتثبيت.

التصوير القرآني والمشاهد والإيقاع والفواصل: لم تعرض السورة حججها في صورة تقريرية جافة، بل أحاطت بها مشاهد حسية تجعل المعنى قريبًا من الإدراك.

مشهد السحاب في قصة عاد: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾.

يبدأ المشهد بتوقعهم الخير؛ فقد رأوا السحاب مقبلًا على أوديتهم، فظنوه مطرًا يحمل الرحمة. لكن الحقيقة تنكشف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهنا تقع المفارقة بين الصورة التي أدركتها أعينهم والحقيقة التي أخبرهم بها الوحي.

فالشيء الذي حسبوه بشارة بالمطر صار علامة على الهلاك، وفي هذا التصوير بيان أن الإنسان قد يخطئ في تقدير ما يواجهه حين يحكم بالظاهر وحده، ويعرض عن خبر الله.

مشهد الجن وهم يستمعون

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾. مشهد قصير، لكنه يكشف أدب تلقي الوحي؛ إذ يبدأ بالإنصات، ثم الفهم، ثم التصديق، ثم البلاغ.

ونتابع الأفعال في الآيات يرسم حركة الإيمان :استماع، وإنصات، ثم رجوع إلى القوم وإنذار.

مشهد عرض الكافرين على النار ؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾.

تتحول الوعود التي كانوا يكذبون بها إلى مشاهدة، ويواجهون السؤال:

﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ﴾. فلا يبقى مجال للجدال أو الإنكار، وإنما يأتي الاعتراف الذي لا ينفع صاحبه بعد انقضاء زمن الاختيار.

مشهد قصر الدنيا: قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾.

وهذا تصوير لحقيقة الزمن في إدراك الإنسان؛ فالعمر الذي شغله عن الإيمان والعمل يبدو عند انكشاف المصير كأنه لحظة قصيرة.

أما فواصل السورة فتتآزر مع موضوعاتها في تذكير السامع بعظمة الله، ومصير المكذبين، وحتمية الجزاء .ولا ينبغي فصل الإيقاع عن الدلالة؛ فالفاصلة القرآنية جزء من النظم، وليست مجرد نهاية صوتية للآية.

وبهذا يظهر أن السورة تجمع بين البرهان العقلي، والمشهد القصصي، والتصوير الأخروي، والتوجيه النبوي، في بناء واحد تتكامل فيه وسائل البيان.

ثانيًا :المقاصد والهدايات الكلية لسورة الأحقاف: بعد النظر في مجموع السورة ونظم مقاطعها، يمكن استخلاص مقاصدها وهداياتها في صياغة جامعة، مع مراعاة أن هذه المقاصد مستنبطة من مجموع الآيات، وليست ألفاظًا منصوصًا عليها مستقلة.

أ .المقاصد الكبرى للسورة

المقصد الأول :تقرير مصدرية الوحي وصدق الرسالة المحمدية: من أول السورة إلى آخرها تتكرر الدلالة على أن القرآن تنزيل من الله، وأن الرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل، وأن ما يدعو إليه هو امتداد لدعوة الأنبياء جميعًا.

ويظهر هذا المقصد في مطلع السورة، وفي مناقشة المكذبين، وفي شهادة شاهد من بني إسرائيل، وفي إيمان الجن بالقرآن.

وتبرز أهمية هذا المقصد في أن ثبوت مصدر الوحي يقتضي التسليم لما جاء به من أخبار وأحكام، وألا يجعل الإنسان أهواءه أو موروثاته أو استكباره حاكمًا على كلام الله.

ومن آثاره العملية أن يكون القرآن مرجعًا في الاعتقاد والعمل، وأن يتلقى المسلم هدايته بالإنصاف والتدبر، لا بالانتقاء الذي يوافق الهوى.

المقصد الثاني :إفراد الله بالعبادة وإبطال الشرك بجميع صوره: أقامت السورة الحجة على وحدانية الله من خلال خلق السماوات والأرض، وملكه، وعجز المعبودات المزعومة عن الخلق والاستجابة والنصرة.

فالتوحيد في السورة ليس مجرد إقرار بوجود الخالق، وإنما إفراد له بالعبادة، ونفي لاستحقاق غيره شيئًا منها.

ويظهر هذا المقصد كذلك في قصة عاد، وفي ذكر الآلهة التي لم تنصر أصحابها، وفي بيان أن من أعرض عن عبادة الله لم يجد فيما اتخذه من دونه ملجأً أو ناصرًا.

ومن آثاره أن يتحرر القلب من التعلق التعبدي بكل ما لا يملك نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذن الله، وأن يكون الولاء الأعلى لله، وأن تضبط علاقة الإنسان بالأسباب والمخلوقات بميزان العبودية.

المقصد الثالث :تقرير البعث والجزاء وربط الحياة الدنيا بمآل الإنسان: يتكرر في السورة إثبات البعث، وتقرير أن الخلق لم يقع عبثًا، وأن للكون أجلًا، وأن الإنسان سيواجه نتيجة عمله.

ويظهر هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، وفي ذكر مصير المؤمنين والمكذبين، وفي مشهد عرض الكافرين على النار، وفي ختام السورة بإثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

وهذا المقصد يرد الإنسان إلى حقيقة وجوده؛ فلا تكون الحياة الدنيا هي المعيار النهائي للنجاح والخسران، ولا تكون القوة أو المال أو طول العمر دليلًا على النجاة.

ومن آثاره العملية أن يزن الإنسان أعماله بعاقبتها، وأن يستعد للقاء الله، وألا يغتر بالإمهال أو يتوهم أن تأخر الجزاء يعني سقوطه.

المقصد الرابع :بيان مسؤولية الإنسان عن موقفه من الحق: عرضت السورة نماذج متعددة للاستجابة والإعراض، لتبين أن قيام الحجة لا يلغي مسؤولية الإنسان، وأن الاستجابة تتصل بقصد القلب وسلامة النظر والعمل.

فالمستقيم له البشارة، والجاحد يعرض عن البعث، والمستكبر يرد القرآن بالافتراء، والجن ينصتون فيؤمنون وينذرون قومهم.

وهذا المقصد يقرر أن الإنسان ليس مسؤولًا عن مجرد ما بلغه من معلومات، بل عن موقفه من الحق حين يتبين له، وعن أثر ذلك في اختياراته.

ومن آثاره العملية تربية النفس على الإنصاف، ومراجعة المواقف، ومقاومة الكبر الذي يحول دون قبول الحق، وعدم جعل الموروث أو المصلحة أو المكانة الاجتماعية مانعًا من الاستجابة لله.

المقصد الخامس :إقامة سنة الله في الأمم وربط التمكين بالمسؤولية

عرضت السورة قصة عاد، وذكرت ما أوتيته الأمم السابقة من وسائل القوة والتمكين، ثم بينت أن ذلك لم يمنع عنها العذاب حين كذبت وأعرضت.

فالقوة في منطق القرآن ليست حصانة من الجزاء، والتمكين ليس شهادة دائمة بالرضا الإلهي.

كما أن هلاك الأمم لا ينبغي أن يقرأ باعتباره حادثة تاريخية منقطعة، وإنما هو عبرة في سنن الله، ودعوة إلى الاعتبار قبل حلول أسباب العقوبة.

ومن آثاره العملية ألا يغتر المجتمع بما يملكه من قوة أو ثروة أو تقدم، وأن يجعل النعمة بابًا للشكر والإصلاح، لا سببًا للاستعلاء والفساد.

المقصد السادس :تثبيت الرسول ﷺ وإظهار امتداد دعوته في سلسلة النبوات

ختمت السورة بالأمر بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وبالنهي عن استعجال العذاب، وبالتأكيد على أن البلاغ قد تم، وهذا المقصد يربط الدعوة المحمدية بتاريخ النبوات، ويقرر أن مواجهة التكذيب والابتلاء من سنن حمل الرسالة.

ومن آثاره أن يكون الدعاة إلى الله على بصيرة في طبيعة الطريق، وأن يفرقوا بين واجب البلاغ الذي كلفهم الله به وبين نتائج الهداية والجزاء التي لا يملكونها.

ب .الهدايات التربوية الكلية

الهداية الأولى :سلامة تلقي الوحي من الكبر والهوى: تعلمنا السورة أن العقبة أمام الإيمان ليست دائمًا غياب الدليل، فقد تأتي الحجة بينة ثم يردها الإنسان بسبب الاستكبار أو التعلق بالموروث.

ولهذا كان من أعظم آداب الإيمان أن يقبل الإنسان الحق متى تبين له، ولو خالف ما اعتاده أو ما ألفه مجتمعه.

وهذه الهداية تتجلى في المقابلة بين من وصف القرآن بالإفك، ومن استمع إليه من الجن فقالوا :﴿أَنْصِتُوا﴾.

الهداية الثانية :الاستقامة امتداد للإيمان وليست مجرد دعوى: ربطت السورة بين قول المؤمن :﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وبين الاستقامة بعد هذا الإقرار.

فالإيمان ليس لفظًا يقال ثم ينفصل عن حياة صاحبه، بل يقتضي ثباتًا على مقتضيات العبودية، وصدقًا في العمل، واستمرارًا في الطاعة.

ومن ثم لا يصح أن يحصر الإنسان صلاحه في لحظة إقرار أو حالة وجدانية عابرة، وإنما يظهر صدق الإيمان في الثبات على الحق.

الهداية الثالثة :صلاح الاعتقاد يظهر في حسن المعاملة: قرنت السورة بين الإيمان بالله وبر الوالدين، وأظهرت أن التوحيد لا ينفصل عن أداء الحقوق.

فمن آثار عبودية الله أن يحسن الإنسان إلى والديه، ويعترف بفضلهما، ويحفظ حقهما، ولا يجعل خلافه معهما ذريعة إلى العقوق.

وهذه الهداية تؤكد أن الدين لا يكتمل في حياة الإنسان بمجرد صحة تصوره العقدي إذا لم يظهر أثره في أخلاقه وعلاقاته.

الهداية الرابعة :النعمة مسؤولية وليست ضمانًا للنجاة: قصة عاد وما أوتوه من القوة تعلم أن أسباب التمكين لا تمنع العقوبة إذا صاحَبَها الجحود والفساد.

فكل نعمة يملكها الإنسان تستدعي الشكر، وكل قدرة تضع بين يديه مسؤولية، وكل توسع في أسباب الحياة ينبغي أن يقترن بمزيد من العدل والإحسان.

الهداية الخامسة :الإنصات والإنصاف طريقان إلى المعرفة الصحيحة: جعل القرآن الإنصات في قصة الجن مرحلة سابقة على الإيمان والبلاغ.

وفي ذلك دلالة على أن الفهم يقتضي حسن الاستماع، وأن الحكم على الكلام قبل تدبره من أسباب الخطأ.

ولا يعني الإنصات قبول كل ما يسمع الإنسان، وإنما يعني إعطاء الحجة حقها من النظر قبل إصدار الحكم عليها.

الهداية السادسة :المبادرة إلى الإصلاح والبلاغ بحسب الاستطاعة: لم يكتف الجن بإيمانهم، بل رجعوا إلى قومهم منذرين، فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وفي هذا بيان أن العلم النافع يحمل صاحبه على تبليغ الحق، وأن الاستجابة الصادقة لا تقف عند صلاح الفرد إذا استطاع أن يدل غيره على الهدى.

ويكون البلاغ بحسب العلم والقدرة والحكمة، دون تعدٍّ أو تكلف أو قول على الله بغير علم.

الهداية السابعة :الصبر وحسن التوقيت من لوازم الثبات على الحق: اختتمت السورة بالأمر بالصبر والنهي عن استعجال العذاب.

وهذا يربي المؤمن على الجمع بين الثبات والعمل وانتظار حكم الله، وألا يقيس نجاح الدعوة بسرعة ظهور النتائج.

فليس كل تأخير حرمانًا، وليس كل إمهال رضا، وليس للداعية أن يجعل استعجال النتائج حاكمًا على تصرفاته.

ج .الهدايات بحسب مجالاتها

الهدايات العقدية

من مجموع السورة تتقرر أصول عقدية جامعة:

- وجوب إفراد الله بالعبادة، وبطلان عبادة ما لا يملك الخلق والنفع والضر.
- الإيمان بأن القرآن تنزيل من الله، وأن الرسالة المحمدية امتداد لرسالات الأنبياء.
- الإيمان بالبعث والجزاء، وأن قدرة الله لا يعجزها إحياء الموتى.
- إثبات مسؤولية الجن والإنس عن الاستجابة للوحي، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب.
- الإيمان بأن تأخير العذاب لا ينفي وقوعه، وأن الله يحكم بين عباده بالعدل والحكمة.
- الإيمان بأن الرسل بشر مصطفون، وأنهم جميعًا دعوا إلى توحيد الله، وتفاوتت مقاماتهم وابتلاءاتهم.

الهدايات السلوكية

تدعو السورة إلى الاستقامة، وبر الوالدين، والشكر، والتوبة، وصلاح العمل، ومراجعة النفس، وترك الكبر والعناد.

كما تدعو إلى عدم الاغترار بالقوة والتمكين، وعدم تأخير التوبة والعمل بحجة طول العمر أو اتساع الدنيا.

الهدايات الاجتماعية

تكشف السورة أن صلاح المجتمع يبدأ من سلامة مرجعيته، ومن قيام أفراده بالحقوق، وعلى رأسها حق الوالدين.

وتقرر أن القوة الاجتماعية لا تحفظ المجتمع إذا فقد العدل والإيمان، وأن استجابة الأفراد للحق قد تكون سببًا في إصلاح من حولهم.

كما أن خبر الجن يبين قيمة البلاغ المتبادل، وأن المسؤولية عن الهداية ليست حكرًا على طبقة اجتماعية أو فئة ذات مكانة، بل تتعلق بما يملكه الإنسان من علم وقدرة وتكليف.

الهدايات الإنسانية

تقرر السورة كرامة الإنسان من حيث تكليفه ومسؤوليته، وتلفت إلى ضعفه أمام قدرة الله، وقصر عمره بالنسبة إلى الآخرة.

كما تبرز قيمة الرحمة في علاقة الأبناء بالوالدين، وتكشف أثر النعمة والتربية والدعاء في صلاح الإنسان.

وتدعو إلى النظر في العواقب، وعدم الاغترار بالمظاهر التي قد تخدع الإنسان عن حقيقة المصير.

الهدايات المتعلقة بالنبوة والعبودية والإصلاح والرحمة والعدل

تظهر السورة أن النبوة رحمة وبلاغ وإنذار، وليست تسلطًا على الناس أو امتلاكًا لقلوبهم.

والرسول ﷺ مأمور بتبليغ الوحي والصبر على الأذى، أما هداية القلوب وتوقيت الجزاء فإلى الله تعالى.

كما تظهر أن الإصلاح يبدأ بإقامة التوحيد، ثم يظهر أثره في الأسرة والسلوك والمجتمع، وأن الرحمة لا تنفصل عن العدل، وأن الإمهال لا يعني إلغاء المسؤولية.

د .التنزيل المعاصر المنضبط

لا يصح أن تُحمّل سورة الأحقاف مفاهيم معاصرة لمجرد وجود تشابه لفظي أو مناسبة فكرية، لكن يمكن تنزيل مقاصدها الثابتة على واقع الإنسان والمجتمع من غير ادعاء أن هذه التطبيقات هي المعنى الأصلي للآيات.

ومن ذلك أن ما يشهده العالم من توسع في القوة المادية والتقنية لا يغير حقيقة الافتقار إلى الله، ولا يجعل التقدم المادي دليلًا على صلاح الاعتقاد أو سلامة السلوك.

كما أن كثرة المعلومات وتداولها لا يغنيان عن الإنصات والتثبت والإنصاف؛ فالمشكلة قد لا تكون في غياب المعلومات، وإنما في الموقف الذي يتخذه الإنسان منها.

وفي المجال الأسري، تذكر السورة بأن بناء الإنسان لا ينفصل عن الاعتراف بحق الوالدين، وأن نجاح المجتمعات لا يقاس بالتقدم المادي وحده، بل بما تحفظه من حقوق وأخلاق ومسؤوليات.

وفي مجال الدعوة والإصلاح، تقدم السورة نموذجًا في الصبر، والبلاغ، وعدم استعجال النتائج، مع الاستمرار في أداء الواجب دون تعدٍّ على حدود التكليف.

وفي المجال الحضاري، تقدم قصة عاد تحذيرًا من الاغترار بالقوة والتمكين، وتدعو إلى ربط أسباب النهضة بالعدل والشكر والمسؤولية.

وهذه التطبيقات تنزيلات اعتبارية لمقاصد السورة، وليست تفسيرًا حصريًّا لآياتها، ولا يجوز أن تُستعمل لإلغاء معانيها الأصلية أو استبدالها بها.

ثالثًا :الخاتمة التفسيرية الجامعة لسورة الأحقاف

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق، وجعل آياته هدى للمتقين، وحجة على المعرضين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن سورة الأحقاف من السور التي اجتمع فيها تقرير أصول الإيمان، وإقامة الحجة على المكذبين، وتصوير عواقب الإعراض، وتثبيت الرسول ﷺ على طريق الدعوة والبلاغ.

وقد ابتدأت السورة بإثبات أن القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، فكان هذا المطلع أساسًا لما تلاه من حجج التوحيد والرسالة والبعث .ثم وجهت النظر إلى خلق السماوات والأرض،

وما فيهما من دلالة على الحق والحكمة والأجل المسمى، لتبين أن هذا الوجود لم يخلق عبثًا، وأن الإنسان ليس متروكًا بلا حساب.

ثم أقامت السورة الحجة على بطلان الشرك، فكشفت عجز ما يعبد من دون الله، وأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تسمع دعاء عابديها، ولا تستجيب لهم، ولا تستطيع أن تنصرهم حين ينزل بهم أمر الله.

ولما ثبتت حقيقة التوحيد ومصدر الوحي، عرضت السورة موقف المكذبين من القرآن، وكيف قابلوا الآيات البينات بالاستكبار والافتراء، وأجاب القرآن عن شبهاتهم ببيان أن الرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل، وأن رسالته امتداد لسلسلة النبوات التي دعت إلى عبادة الله وحده.

ولم تكتف السورة بإقامة الحجة على المكذبين، بل عرضت شاهدًا من بني إسرائيل على صدق الوحي، ثم أظهرت نموذجًا آخر للاستجابة في خبر الجن الذين استمعوا إلى القرآن، فأنصتوا وآمنوا به، ثم عادوا إلى قومهم منذرين.

وهنا تظهر إحدى القضايا العميقة في السورة :أن الحق لا يفقد قيمته بسبب إعراض المعرضين عنه، وأن من صدق في طلبه وانتفع بالإنصات له اهتدى إليه، مهما اختلفت حاله أو جنسه أو بيئته.

ثم انتقلت السورة إلى الإنسان في علاقته بوالديه، فجمعت بين الإيمان والعمل، وبين صلاح الاعتقاد وحسن المعاملة، وبين الدعاء والتوبة وقبول العمل وصلاح الذرية .وعرضت في مقابل ذلك نموذج الابن الذي جحد البعث، واستكبر عن الإيمان، ليظهر أن اختلاف المواقف من الوحي ليس أمرًا نظريًّا، وإنما تظهر آثاره في حياة الإنسان وأخلاقه ومصيره.

ثم عادت السورة إلى التاريخ، فذكرت هودًا وقوم عاد، وما أوتوه من القوة والتمكين، وكيف لم تغن عنهم قوتهم شيئًا حين كذبوا رسولهم وأعرضوا عن أمر الله.

وكان مشهد السحاب الذي ظنوه مطرًا ثم انكشف أنه ريح تحمل العذاب من أبلغ مشاهد السورة في تصوير انقلاب ما يتوقعه الإنسان على خلاف مراده حين يعرض عن هدى الله ويغتر بظواهر الأمور.

ثم وسعت دائرة الاعتبار إلى القرى التي حول المخاطبين، وذكرت أن الأمم التي سبقتهم أوتيت من أسباب القوة والإدراك ما لم يؤته كثير منهم، ومع ذلك لم تمنعها وسائلها من الهلاك حين جحدت الحق، ولم تنصرها آلهتها المزعومة حين أحاط بها العذاب.

وفي هذا بيان أن القوة ليست دليلًا على الحق، وأن امتلاك أسباب الحياة لا يغني عن الإيمان، وأن ما يتخذه الإنسان من دون الله معبودًا أو معتمدًا لا يملك له النجاة إذا جاء أمر الله.

ثم أعادت السورة تقرير البعث في ختامها، وردت استبعاد المكذبين إلى أصل الخلق؛ فالذي خلق السماوات والأرض ولم يعجزه خلقهن قادر على إحياء الموتى، ولا يصح أن يستبعد الإنسان إعادة خلقه مع إقراره بأن الله أنشأه ابتداءً.

ثم عرضت مشهد الكافرين على النار، حين يواجهون حقيقة ما كانوا به يكذبون، ويقرون بأن العذاب حق، لكن اعترافهم يأتي بعد فوات زمن الانتفاع بالإيمان والعمل.

وبعد ذلك وجه الله نبيه ﷺ إلى الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ونهاه عن استعجال العذاب، وبيّن أن ما يراه الناس طويلًا من عمر الدنيا ينكشف عند معاينة الآخرة كأنه ساعة من نهار.

ثم ختمت السورة بالبلاغ والفسق والهلاك، لتقرر أن الرسالة قد أدت وظيفتها في البيان والإنذار، وأن الجزاء يجري على مقتضى العدل الإلهي، وأن الهلاك المستحق إنما يكون لأهل الفسق والتكذيب.

وهكذا يتبين أن السورة قد جمعت بين إقامة البرهان، وكشف مواقف النفوس، وضرب الأمثال بمصارع الأمم، وبيان آثار الإيمان في الأسرة والمجتمع، وتقرير البعث والجزاء، ثم تثبيت الرسول ﷺ على طريق البلاغ.

وليس المقصود من هذه الحجج مجرد إفحام الخصم، وإنما هداية الإنسان إلى الحق قبل أن يأتيه اليوم الذي لا ينفع فيه الاعتراف، ولا يستطيع فيه أن يستدرك ما فرط.

ومن تأمل السورة وجد أن أعظم ما تحذر منه ليس مجرد الجهل بحقيقة الوحي، بل الإعراض عنه بعد ظهوره، والاستكبار عن اتباعه، والاغترار بالقوة والنعمة، وتأخير التوبة والعمل حتى يفاجئ الإنسان انقضاء الأجل.

كما وجد أن أعظم ما تدعو إليه هو صدق العبودية لله، وحسن الاستجابة لوحيه، والاستقامة على أمره، وأداء الحقوق، والاعتبار بمصائر السابقين، والصبر على طريق الحق، والثقة بأن وعد الله لا يتخلف.

وخلاصة رسالة السورة :أن الوحي حق من عند الله، وأن الخلق قائم على الحكمة والأجل والجزاء، وأن النجاة ليست بالقوة ولا بالموروث ولا بدعوى الإيمان، وإنما بالاستجابة الصادقة لله والاستقامة على أمره، وأن تأخر العذاب لا يعني سقوطه، كما أن تأخر ظهور العاقبة لا يعني ضياع الحق؛ فليصبر المؤمن على طريق الرسالة، وليعتبر الإنسان قبل أن يرى ما كان يوعد.

والله أعلم بمراده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع العلمية العامة للدراسة

أمهات كتب التفسير

- الطبري، محمد بن جرير، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الأحقاف.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تفسير سورة الأحقاف.
- القرطبي، محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة الأحقاف.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة الأحقاف.
- الرازي، فخر الدين، *مفاتيح الغيب*، تفسير سورة الأحقاف.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، *البحر المحيط*، تفسير سورة الأحقاف.
- الألوسي، محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، تفسير سورة الأحقاف.
- الشوكاني، محمد بن علي، *فتح القدير*، تفسير سورة الأحقاف.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الأحقاف.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، تفسير سورة الأحقاف.
- سيد قطب، *في ظلال القرآن*، تفسير سورة الأحقاف.

مصادر اللغة والبلاغة

- ابن فارس، أحمد بن فارس، *مقاييس اللغة*.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، *لسان العرب*.
- الراغب الأصفهاني، *المفردات في غريب القرآن*.
- الزجاج، إبراهيم بن السري، *معاني القرآن وإعرابه*.
- أبو حيان الأندلسي، *البحر المحيط*، فيما يتعلق بالتوجيهات النحوية والقرائية.
- الزمخشري، محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، مع مراعاة أصوله الاعتزالية عند مناقشة المسائل العقدية.

مصادر علوم القرآن وأسباب النزول

- الواحدي، علي بن أحمد، *أسباب النزول*.
- السيوطي، جلال الدين، *لباب النقول في أسباب النزول*.
- الزركشي، بدر الدين، *البرهان في علوم القرآن*.
- السيوطي، جلال الدين، *الإتقان في علوم القرآن*.
- مكي بن أبي طالب، *الإبانة عن معاني القراءات*.

مصادر الحديث والتفسير بالمأثور

- البخاري، محمد بن إسماعيل، *الجامع الصحيح*.
- مسلم بن الحجاج، *الصحيح*.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث، *السنن*.
- الترمذي، محمد بن عيسى، *الجامع*.
- أحمد بن حنبل، *المسند*.
- عبد الرزاق الصنعاني، *التفسير*.
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، *تفسير القرآن العظيم*.

في هذا الكتاب

يقدّم هذا الكتاب دراسة تفسيرية تحليلية لسورة الأحقاف، تجمع بين التفسير التفصيلي والتحرير العلمي، فتعرض السورة بحسب وحداتها ومقاطعها، مستقاةً من أمهات كتب التفسير والمأثور، مع تحرير المسائل النحوية والعقدية والترجيح بين الأقوال. ويكشف الكتاب عن الوحدة الموضوعية للسورة والنظم القرآني فيها، ويتتبع حركتها وإقامة الحجج من إثبات مصدرية الوحي إلى إبطال الشرك، ومن مواقف الناس من القرآن إلى شهادة الجن وإيمانهم. ويبرز المقاصد الكبرى والهدايات التربوية والاجتماعية المستفادة منها، ويعيد بناء الحجة التاريخية في قصة عاد والأحقاف. كما يعتني بتحرير الأسباب والروايات، والتمييز بين الثابت وغيره، مع التزام المنهج العلمي في النقل والترجيح. ويأتي الكتاب في سبعة مقاطع تفسيرية، تتكامل فيه المعرفة بالمنهج والتفسير والتحليل البياني، مع توثيق المراجع والترجيح بين الأقوال.